رسول محمد رسول

يحدث في بغداد

رواية

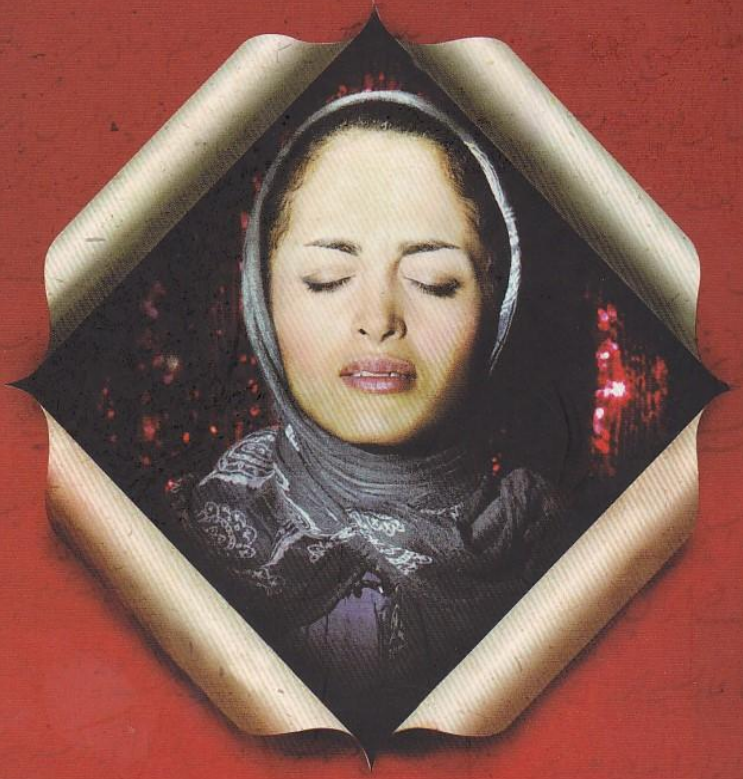

الدار المصرية اللبنانية

يحدث في بغداد

رواية

رسول، رسول محمد.
يحدث في بغداد: رواية / رسول محمد رسول .- ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.
200 ص؛ 20 سم.
تدمك: 4 - 932 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ - العنوان. 813
رقم الإيداع: 19127 /2014

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: ذو القعدة 1435 هـ - سبتمبر 2014م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

رسول محمد رسول

يحدث في بغداد

رواية

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

إلى أمي..

لا ترحلي عنِّي.. سامحيني..

«مرهون»

بعـد الانتهاء من شـعائر الدفن، عدتُ إلى منزلـي ثقيل الخطى، حزيـن الـروح؛ لأكون مع نفسـي وحيدًا وقـد حبسـتُ دموعي منذ سـمعت نبـأ وفـاة صديقـي الكاتـب والقـاص والروائـي «مرهـون الشاكر» في مستشفى المدينة، إثر مرض نهش رئتيه، وعذَّب روحه، حتى أودعه الغياب الأبدي.

1

لم يعش مرهون طويلًا، كانت أربعة عقود وثلاث سنين أمضاها ملتاعًا بين الدراسة والقراءة والكتابة والعمل والجوع والخوف من رهبة الحروب التي دمَّرت كيان وطنه المعذَّب حتى استحال إلى خراب موحش أفقده بهاءه الذهبي الذي كان عليه.

رحل «مرهون» إلى موتٍ أبديٍّ بعد تمزُّق رئته اليمنى لينتقل المرض إلى رئته الأخرى ولا يتنفس سوى العدم ليمضي عن عالمنا كئيبًا، مطعون الذات، مُستسلمًا لمآل الرحيل الأبدي مُكرهًا.

تزوَّج «مرهون» من حبيبته ومدينة قلبه الأولى «فاطمة البصري»، التي استُشهدت في حرب عام 1991 بقصفٍ صاروخيٍّ هدم منزل أهلها شرق العاصمة بغداد، وقتل كل أفراد أسرتها بعد أن لاذت بوهم أمانه خوفًا من القصف الصاروخي الأمريكي الأرعن على أحياء العاصمة في حينها. تزوج «مرهون» ثانية من «نُهى» التي كان يصفها دائمًا بالغامضة؛ تزوَّجها من دون أن يحبها، وتلك كانت أقداره التي خبأت له مصائر داجنة، تزوَّجها احترامًا لوالدته التي كانت تريد له أطفالًا يرثون سلالة أبيه، ويجددون حياته من بعده..

في غير مرَّة، كان المرحوم يقول لنا؛ أنا وزوجتي «مريم الشبلي» إنه «لا ينسجم مع زوجته الثانية نهى، وإنَّ عالمها غير عالمه، فهي لا تريد العيش مع مثقفٍ مُبدعٍ، إنَّها تبحث عن زوجٍ ثري يفرش تحت أقدامها ليرات من الذهب، ويمنحها في كل شهر تذكرة سفر وحفنة دولارات أمريكية لتلهو بالحياة بعيدًا عنه...».

كانت «نهى» تبحث عن حرية لا تريد أن تكون مسؤولة عن نهاياتها حتى لو كانت كارثية عليها وعلى غيرها.

منذ أخذ يحس بتناقص الهواء في رئتيه، حتى بدأت أوجاعه تظهر كغيومٍ معتمةٍ في سماء حياته الصحية، كان يقول: «نهى أغوت عزرائيل ليأسرني بظلاله الخبيثة، ويرسلني عليلًا إلى الموت على طبق من مرض».

ولذلك أخذت «نهى» تنوص نائية عنه، ولا تقترب منه، بل راحت توسِّع الفجوة بينها ووالدته، وهي امرأة السبعين عامًا، وأخذت تحرق أكثر أيامها في منزل والديها، كما كانت تدَّعي هي ذلك، لكن «مرهون» بدا مُرتابًا في مزاعمها تلك، وكان ذلك يؤلمه ويمزق ذاته، بل ويفاقم من أوجاعه حتى إنه طلبها مرارًا للمجيء إلى المستشفى حيث يُعالج، لكنها دائمًا كانت تختلق الأعذار، كان يريد أن يوصيها خيرًا بأمه في ظلِّ تفكيره الغريب بأن زوجته «نهى» يمكن أن تتحمَّل عبء مسؤولية من هذا النوع، لكنَّها لم تفكِّر بأي

شـيء من هذا القبيل مطلقًا، فهي تُدرك أن «مرهون» لا يملك شـيئًا ثمينًا خلا أثاث حجرة نومه، ومكتبة ضخمة كثيرًا ما أشهرت كرهها لهـا، أما المنزل فهو حيازة لوالدتـه منذ كان والد «مرهون» على قيد الحياة قبل وفاته بحادث سير أرعن.

كانت «نهى» تقـول، بين الحين والآخر، إن «مرهون» لا جدوى منه كزوج، وهو ما كانت تصرِّح به جهارًا أمامه ولوالدته، بل ولأهلها حتى، وربما لآخرين...

هناك الكثير ممَّا لا نعرفه عن حياتهما معًا سـوى ما كان يخبرني به «مرهون» شـخصيًّا؛ فما سبب مرضه بسرطان الرئة، وهو الإنسان الذي يعتني بصحته جيدًا؟

يوجـد هنـاك مـا وراء أو ما خلـف، يوجد مـا تحـت، وما حول فـي حياتـه اليوميـة، يوجد ما هو «مسـكوت عنه»، كمـا يقول بعض الفلاسـفة، أما ما هو واضح من حياته فلا يمثل إلَّا اليسـير مما تبدَّى عن مجريات حياته الزوجية، سواء من خلال ما كان يخبرني به أو ما يبدو لي ولزوجتي «مريم».

أيـام العـزاء الثلاثة مضت بحزنٍ مـؤسٍ؛ لم يأتِ أحـد من عائلة «نهـى»، ولا حتـى «نهـى» نفسـها، كان الحاضـرون مـن أصدقـاء «مرهـون»؛ روائيـون، شـعراء، نقَّـاد، مثقفـون، صحافيـون.. كانت أم «مرهـون» تنحب بـكاءً حزين الطيَّـة ينوح له النهـار كلَّما علمتْ

بمجـيء أحد أصدقاء ولدها الراحـل.. الحاضرون، بدوْرهـم، كانوا يبكـون رحيله المفاجئ والغامض، ويبكون بأنينٍ محبوسٍ أشـجان والدتـه المكروبـة بمـوت آخر أولادهـا الأربعـة؛ «واقد الشـاكر»، و«علي الشـاكر» توفيـا في حرب الثمانينيات المشـؤومة، «حسـين الشـاكر» قطع المسـلَّحون المتطرِّفون الحالمون بحور الجنَّة رأسـه عن جسـمه في آماق موحشـة غرب العاصمة، أما «مرهون الشاكر» فمـات كمدًا، كما تقـول والدته؛ «فما كان سـرطان الرئة الذي مزَّق رئتيـه إلَّا سـببًا قريب الأثـر في رحيلـه؛ فلم يكن مرهـون بالمدخِّن للسـجائر، ولا بمتعـاطٍ للخمر؛ كان نظيف الجسـم، نظيف الروح، متأنيًـا فـي طعامه، عاطـر الثيـاب.. إنَّها الأفعـى اللعـوب نُهى التي حوَّلت أيامه إلى نكدٍ وجحيمٍ وقهرٍ وخسران لم يكن مرهون الرقيق الإحسـاس بذلـك الكائـن القادر علـى مواجهة مـا كان يلاقيه حتى أنهت حياته ليرحل عن الدنيا مظلوم النَّفس مغبون النصيب».

2

قبل وفاته بأيام، كان «مرهون» قد طلب مني أن أكون قريبًا من والدته في حال اشتداد سقمه ومرضه عليه. كان يريد أن يقول: «كن قريبًا منها يا سعيد في حال موتي، فأنت ولدها من بعدي».

كان يحْدس أن زوجته «نهى» ستتخلَّى عن والدته، ويعرف أن لا أحد سيكون مع هذه الوالدة وهي الغريبة في العاصمة، المرأة المقطوعة من شجرة، فليس لها أخوة ولا أخوات سوى الأقرباء الأباعد في زمن افترق فيه الناس بعضهم عن بعض صوب أقدارهم وهم يحملون أرواحهم على راحات أكفهم بعد حلول الموت ضيفًا يسرح بين أصابعهم حاصدًا أرواحهم بخلسة وقحة...

منذ أيام العزاء، دفعتُ بزوجتي «مريم» إلى بيت أم «مرهون»، أبقيتها هناك حتى يوم أربعينية المتوفى، كما يُقال. وفي خلال ذلك، لم أكن بعيدًا عنهما، ولم يكن منزلي ببعيد حتى عن دار أم «مرهون»، بل وأخذت أحسب لهذه الأم المفجوعة برحيل أولادها الأربعة حسابًا في معاشي الشهري.

لقد حسمتُ أمري وجعلتها أمًّا لي.. وكانت زوجتي «مريم» مُنسجمة معي في كل ذلك؛ خصوصًا أنَّها لم تنسَ ذلك اليوم الذي اختارتها أم «مرهون» زوجة لي، ومنذ يومها كانت «مريم» تنادي والدة «مرهون»: «يا أمي»، و«مريم» التي تنحدر من مدينة بابل، هي الأخرى غريبة على العاصمة المظلمة سوى من أصوات الرصاص المتقاذف على غير هدى، وصور القتل الأعمى، وتجوال غربان الشر بين خرائبها الموحشة.. «مريم» ليس لها سواي زوجًا وحبيبًا وأبًا وأخًا في هذه العاصمة المخيفة.

3

كانت المدرسة الابتدائية هي المكان الأول الذي جمعني و«مرهون»، فأمضينا سنوات الدراسة الأولى معًا كصديقين أخوين يسكنان في منطقة واحدة، ولا فرق بين دارينا، فقد كان بيت والده هو بيتي، وبيت والدي هو بيت «مرهون».

ولمَّا تخرجنا في كلية الآداب، عملنا معًا في وزارة واحدة، وخلال تلك السنوات، مرَّت علينا مآسٍ عاشها وطننا الجريح من حروب وحصار اقتصادي وظلم دولي وعربي، وأخيرًا صور الإرهاب الدامية التي باتت شبحًا يخنقنا رعبه، وتؤذينا بشاعته، وتعدمنا سيوفه.

أخبرني مدير الحسابات بأن زوجة المرحوم «مرهون»، جاءت إليه، وبدأت تتابع أوراق حصولها على الراتب التقاعدي لزوجها المتوفى.

شعرتُ بالغضب ممَّا سمعته حتى هدَّأ مدير الحسابات من روعي عندما قال لي: «إنه حقها، ولا أحد يمنعها؛ هو استحقاقها».

بلعتُ غضبي، وطويت توتري، فبدلًا من التنازل عن الراتب التقاعدي لوالدة «مرهون» المسكينة ترى أرملته «نهى» تطالب به، نعم هو حقها، ولكن ماذا عن حقوق المرأة المسكينة أم «مرهون»؟

أخذتني خطاي إلى مقصف الوزارة لأشرب كأس شاي سيكون طعمه مرًّا، وأدخِّن سجائري البغيضة بعد سورة الغضب تلك التي أثارتها «نهى» بداخلي وهي التي لم تحضر حتى في عزاء وفاة زوجها، ولم تفكِّر بوالدته: «أية مخلوقة هذه؟». تساءلت.

في الطريق إلى المقصف، صادفني «عادل»، ساعي البريد الذي كان يحمل إلينا دائمًا، أنا و«مرهون»، المظاريف والرسائل القادمة من الخارج، التي تضمُّ، في أحيانٍ كثيرةٍ، بعض الكتب والمجلات الأدبية التي لا تُباع في مكتبات بلدنا، بل ولا تصل إليها حتى..

عندما رآني «عادل»، تهاوت دموعه على خديه، كان صوته غائرًا في حنجرته، كان يريد البكاء، لكنَّه رمى بوجهه على صدري وأخذ يبكي ناحبًا، قال لي: «سامحني، لأنني لم أحضر مراسم الدفن ولا العزاء، كان زحام المركبات، وتعقُّد التفتيش، وتعدُّد الانفجارات مانعًا».

أوضح لي «عادل» بعدها، أنَّ ابنته «سارة» كانت مريضة، وأنَّه كان منشغلًا بعلتها، فعذرته، ورحت أُهدِّئ من أحزانه حتى فتح حقيبته، وأعطاني رزمة من الرسائل القادمة إلى «مرهون» من

بيروت، وقبرص، والشارقة، والبصرة، والنجف، بعضها بدا سميكًا يضمُّ مطبوعات متنوِّعة الحجم، وغيرها مجرَّد مظاريف خفيفة الوزن.

عدتُ إلى مكتبي لكنَّني لم أتمالك نفسي، فأجهشتُ ببكائي ناحبًا موت أحبَّ أصدقائي إليَّ حتى تساءلتُ بحسرة المفجوع: «من أين جئتني يا عادل؟».

صارت دموعي تهطل على الرسائل القادمة إلى «مرهون». جاءتني زميلتي «أم هناء» لتزيل عني غيمة بؤسي في تلك اللحظة، لكن دموعها سرعان ما انفرطت لتبكي خسارتنا جميعًا لـ «مرهون الشاكر»، الإنسان والكاتب والمبدع الأصيل، كان بكاؤها شجيًّا مشوبًا بحرقةٍ وندمٍ على كل الذين يموتون في وطن يأخذنا ونأخذه إلى الموت في كل لحظة.

ما كانت تلك الظهيرة عابرة، إنما حزينة بكل ما فيها من ألم.

حملت المظاريف معي إلى منزلي، وحملتها مساءً إلى أم «مرهون»، قلت لها: «هذا بريد مرهون»، لكن دموعها فاضت عن مآقيها وهي ترنو لصوت الذكرى، وتستعيد في ذهنها مناسبة من هذا النوع عندما كان «مرهون» يدخل البيت وهو يحمل رزمًا من الرسائل والمظاريف، فقالت، بعد أن جفَّفت دموعها بكفها: «افتحها يا ولدي؛ لك أن تفتحها في أي وقت، فأنت مرهون يا سعيد».

التفتُّ نحـو «مريم»، وجدتها تحبس دمعًا سـبخًا، لكنَّها أومأت لـي باحتواء الموقف.. بدأتُ بفتح المظاريف، كان في أحدها صكًّا مصرفيًّـا، وكانت تلك كارثة، فمبلغ هذا الصك سـيذهب حتمًا إلى أرملة «مرهون».

فتحــت المظـروف الثانـي، وكانت فيه رسـالة من ناشـر لبناني، لكنَّني أرجأتُ قراءتها..

فتحـتُ الثالـث فـكان يضـمُّ رسـالة مـن مجلـة «الرافـد» التـي تصدر بالشـارقة، أمـا الرابع والخامس فكانا يضمَّان دواوين شـعر، ومجموعـات قصصيـة صغيـرة، وروايـة جديـدة لكاتبـة إماراتيـة، ومجلات عربية صدرت حديثًا.

اسـتأنفتُ، بعـد ذلك، قـراءة الرسـالة الثانيـة، والتي يُذكِّـر فيها الناشر اللبناني، الذي كان «مرهون» يتعامل معه في إصدار مؤلَّفاته، بضرورة إرسـال مخطوط الرواية قبل الموعد المتفق عليه بشـهرين حتى يمكن طبعها وترشـيحها إلى إحـدى الجوائز الإبداعية العربية هذا العام.

سـألت أم «مرهون» عـن أوراق ولدها وكتاباتـه، فأوضحت لي أنَّها جمعتها وحشـرتها في صندوق، ودسَّـته تحت سـرير المرحوم فـي حجرته، فطلبـتُ من «مريم» الدخول إلى غرفـة «مرهون» لكي تأتيني بذلك الصندوق، إلَّا أنَّها امتنعت قائلة: «لا بُدَّ وأن تأتي زوجة المرحوم نفسها لكي تعطيك إياها يا سعيد».

لم يعجبني هذا الرَّد؛ فزوجة «مرهون» لا تهتم بالأمر، وأوضحتُ ذلك لأم «مرهون»، وكذلك لزوجتي «مريم».

اتفقنا على الدخول كلنا إلى الغرفة، لكن والدته رفضت ذلك، فهي لا تقوى على رؤية أشياء ولدها الراحل، بل ومنذ انتهاء أيام العزاء لم تدخل إلى حجرة ولدها سوى ذلك اليوم الذي وضعت فيه الصندوق تحت سريره، هذا ما أخبرتني به «مريم» فاضطررتُ إلى الدخول إلى الحجرة مع «مريم» بعد أن غيرت رأيها حول هذا الموضوع..

لاح لنا الصندوق مدسوسًا تحت سرير «مرهون»، وجدنا فيه بضع ملفات أغلبها مكتوبة بخطِّ «مرهون»، وقلتُ لنفسي و«مريم» إلى جانبي: «هذا ما أبحث عنه.. هذا ما أريده..».

حملتُ الصندوق إلى والدة «مرهون» التي كانت تجلس في الصالة، وأخبرتها بالتفاصيل، قلت لها إن المرحوم كان يكتب رواية، واتفق مع ناشر لبناني بأن يدفع مخطوطها إليه في نهاية العام، والناشر لم يعلم برحيل «مرهون» لأنَّ الرسالة مؤرَّخة قبل رحيله بيومين، لكن «عادل»، ساعي البريد، احتفظ بها وسلَّمها لي صباح هذا اليوم، فقالت أم «مرهون»: «تصرَّف بالأمر، إذا وجدتها فأرسلها للناشر».

بحثت في الصندوق، لكنَّني لم أجد ما أريده في بداية الأمر، بدلًا من ذلك، وجدتُ أوراقًا متفرِّقة مكتوبة بخط «مرهون» يبدو أن والدته جمعتها على غير نسق، ووضعتها في الصندوق لأنَّها تعتقد بعدم جدوى كل ما هو موجود بعد رحيل ولدها صاحب الشأن، فصار الاتفاق أنْ أحمل الصندوق معي إلى منزلي، وأجلس هناك لإعادة ترتيب ما فيه من مقالات، ونصوص إبداعية، وغير ذلك من ملفات وأوراق إنْ وجدت..

4

ودَّعـت أم «مرهون» وزوجتي «مريم» لكي أعود إلى منزلي وأنا أحمل الصندوق الذي بدا لي كنزًا لم أحصل على مثله سابقًا.

جلسـتُ فـي غرفتـي، أخـذت أُقلِّـب الأوراق التـي فيـه، ثلاث صفحـات تحمـل عنـوان: «مسـرَّات ضائعـة»، تبدو قصـة قصيرة، وأربع صفحات تبدو قراءة تحليلية في مقاطع من «ألف ليلة وليلة»، وأربـع صفحات أخرى تضمُّ عشـر أقصوصـات أو «قصص قصيرة جدًّا» كما يقول بعض النقَّاد، وعشرون صفحة تبدو دراسة في رواية عبد الرحمـن منيف «شـرق المتوسـط»، وخمس صفحـات أخرى تبدو قصَّة قصيرة تحت عنوان: «يوميات كاتب متجوِّل».

نظرتُ في قاع الصندوق، فوجدت ضميمة أوراق أخرى خامدة على بطنها هي كل ما تبقَّى فيه، حملتها بكفي وإحساسـي يسـاورني بأنَّها الرواية، نظرتُ في وجه صفحتها الأولى:

آهِ يا مرهون، هذه هي روايتك: «ينحني الصابر للوجع».

هكـذا قرأت عنوانها بصوت المحارب المنتصر: «عنوان رائع يا مرهـون، كيف اصطفيت هكذا عنوانًا؟ جميلةٌ هي أسـرارك يا رفيق العمر كله..».

ركنتُ الأوراق جانبًا عـن الصندوق، وضعتها على طاولة عتيقة كان المرحوم قد أعطاها لي قبل سنوات كأيقونة عريقة الأثر، لكنَّني شـعرت بالحاجة إلى رشـة ماء تنعـش بدني المرهـق.. دخلت إلى مطبخي، وعمَّرت إبريق شـاي أو «طنجرة شـاي»، كمـا يُقال عادة، لأسـهر مـع مخطوط «مرهـون» أو مخطـوط رواية «ينحنـي الصابر للوجـع»، أردتُ الاطمئنـان علـى أن الروايـة مكتملـة الفصـول، نظـرت في الصفحة الأخيـرة فوجدت توقيع «مرهون» في وسـطها بكلمة: «انتهت».

شـعرت بالنشـوة لأننـي تحصَّلـت علـى الكنـز مكتمـلًا، كان «مرهـون» لا يسـتخدم الحاسـوب فـي كتابـة أعمالـه القصصيـة والروائية، بل وحتى مقالاته ودراساته، كان يشعر بدفء الورق وهو يكتب عليه بقلم رصاصٍ، كان يريد أن يعيش تلميذًا أبد الدهر، حتى إنـه ذكر لي مرَّةً أن زوجتـه الراحلة «فاطمة البصـري»، كانت تحب خطَّـه الأنيـق عندما يكتب، بـل كانت تتغنَّـى بأصابعه التـي يمررها على الورق بشـكل حميم، وكأنه يريد القـول إن «فاطمة» تغار حتى مـن الورق الـذي يكتب عليـه.. وغالبًا ما كان يروي لـي أنه لا يجد أقـلام الرصـاص التي بـدأ بأحدهـا كتابة بعـض مقالاتـه وقصصه،

وفي يوم ما، وبعد رحيلها الفاجع ذاك، يقول «مرهون»: «عثرتُ على دزينة أقلام كنتُ قد استخدمتها من ذي قبل في الكتابة وهي مرصوصة بين طيَّات ثياب فاطمة العاطرة التي احتفظتُ بها لفترة بعد استشهادها، وفي تلك اللحظة، بكيت حنينًا إلى نزواتها البريئة تلك، أيَّة أنثى رائعة كنتِ يا فاطمة عندما تسرقين مني أشيائي العابقة برائحة أصابعي التي كثيرًا ما كنتِ تضمينها إلى صدرك عندما ينشد جسدك موسيقى حنينه غير بعيد عن شفتي وأنفاسي؟».

هكذا كان يسأل «مرهون» بحسرة الخاسر كلَّما تذكَّر زوجته الأولى..

أمسكتُ برزمة الورق، ورق المخطوط، بين كفيَّ لكي أشرع بقراءة الرواية، تذكَّرتُ ما قاله لي «مرهون» يومًا من أن كتابة رواية هي أشبه بعملية «تسلُّق جبل، عليكَ أن تتخذ نفَسًا، وتضبطه على وقع الخطى، كما كان يقول الروائي الإيطالي أمبرتو إيكو».

كان تذكُّري لما قاله المرحوم رائقًا لي وأنا أهمُّ بقراءة الرواية، إلا أن النُّعاس المخاتل حطَّ رحاله على جفني، فلقيتُها وقد تملَّكها الوهن..

وضعت ضميمة الأوراق جانبًا، ومددتُ جسدي المُنهك على أريكة صالتنا.. رحتُ أترسَّم سقفها بذهني، لكنَّه السقف راح يتوارى في أحلام رقاد غائر الثنايا..

5

صباحًا، أيقظني رنين هاتفي الجديد على حياة بلدنا، نهضتُ من فراشي، كان حدْسي بأنَّها «مريم»، لكن حدْسي خذلني هذه المرَّة، بدا الرقم مجهولًا، فلم أردّ، وظل هذا الرقم النكرة يردِّد عواءه حتى نهضت عن سريري وأجبت، سألني بصوتٍ حرش:

- بو حاتم؟

- كلا..

فاعتذرَ؛ لألعن اللحظة، ولكنني تساءلت: «أبو حاتم، مَنْ يكون هذا الفحل؟».

حاولت العودة إلى سريري، لكنها عقارب الساعة بدت كسيفٍ جبَّار يقول لي: «حان دور العمل أيها النائم المكسال»..

هرولت إلى واجبات الصباح؛ الاستحمام، الملابس، قطعة خبز مع الجبن، شاي، خروج من البيت، زحمة سير المركبات الجنونية، مفاجآت الطريق؛ مفخخة، عبوة ناسفة، انتحاري، غلق شوارع، صراخ السائقين، شتائم، عراك متسوِّلين صغار الحجم عند إشارات

المرور المطفأة الأنوار، قذارة أكوام القمامة المتراصة في الشوارع، سيارات الحرس والجيش والأمن والمرور، السابلة، وأشياء أخرى مزعجة..

تذكَّرت أنني نسيت مخطوطة الرواية في المنزل: «آه.. اللعنة عليك يا هذا الصباح، لو حملتها معي إلى عملي لكنتُ بدأت بقراءتها؟ سحقًا لخمول ذاكرتي، اللعنة عليكِ أيتها البليدة..».

رنَّ هاتفي وأنا في الطريق إلى مكتبي، كانت «مريم» بصوتها الدافئ:

- أين أنتَ؟

- للتوِّ وصلت إلى مكتبي.

- كيف الحال، كيف كانت ليلتك، هل نمت جيدًا، هل فطرت، هل أغلقتَ باب الدار جيدًا؟

- نعم، نعم، نعم... كل شيء نعم، ونعم، ونعم، أحبكِ سيدتي، أعشقكِ، أشتا...

قُطع الاتصال..

جلست إلى مكتبي، عاودت الاتصال بـ «مريم»:

- كل الأمور ممتازة. كيف أنتِ؟ كيف الحال؟ هل نمتِ جيدًا؟ كيف هو فطورك؟ كيف هي أم «مرهون»؟ كوني حريصة عليها، هذه المرأة أمانة بعنقك يا «مريوم»، أمك، هي أمُّنا معًا.

- يبدو مزاجك هذا الصباح رائقًا، أخبرني عن ذلك؟

- لا أدري، أشعر بالسعادة لأنني وجدت مخطوط رواية المرحوم، والآن لا بُدَّ من إعدادها وإرسالها إلى دار النشر، وتكون أول رواية تصدر له بعد رحيله، أفكِّر يا «مريم» بكتابة مقدِّمة لها..

قاطعتني بصخبٍ:

- لا يا «سعيد»، إياك أن تفعل ذلك، إذا كنتَ تحترم روح الفقيد، فعليك أن تنشر الرواية كما هي من دون أيَّة مقدِّمة، هل تذكُر أنَّه كان يأبى أي مقدِّمات يكتبها أحد من الناس لأعماله التي نشرها سابقًا؟

- شئت أن أقول لك بأنني..

قاطعتني مرَّة أخرى:

- لا تقل شيئًا، اسمع نصائح حبيبتك «مريوم»، كتابتك مقدِّمة لهذه الرواية يعني استغلالك لموته، هذا ما سيقوله الناس عنك، إياك يا حبيبي أن تشط، فأنتَ لست بحاجة إلى ذلك.

أحبُّ «مريم» عندما تناديني، وهي جادة، بكلمة «حبيبي»، أشعر بالسعادة لسماع هذه المناداة الشاعرية الرقيقة، تقولها لي في الشهر ألف مرَّة ولا ملل، ومن دون أن تكون مجرَّد لفظة فارغة، غالبًا ما تقولها بإحساس دافئ مُضاء بدلالات غنجة..

آه..، تذكَّرت، ربما تكون هذه الـ «مريم» في شوقٍ إلى حضن زوجها؟

قـد يكون ذلك ممكنًا؛ فمنذ وفاة «مرهون» وهي هنالك في بيت والدته، لم تنم منذ أيام سوى أوقات متقطعة قليلة..

كـم أنا حمار وبليد.. ثمَّ إنَّها قالت لـي: «حبيبتك مريوم»، وهذه كلمة السر بيننا عندما يأخذها الحنين إلى حفلة غير هادئة في سريرنا المشترك أقطف عبرها شيئًا من ثمار جسدها الناضجة..

آهِ.. كـم أنـا غبي هذا الصبـاح! لكن لا بأس، لأكتب لها رسـالة أعتذر بها عن غبائي وبلادتي..

كلا، لا أعتقـد أن «مريـم» يجتاحهـا عصـف الرغبـة الآن وهـي تعيش مأساة ما مرَّ..

فعـلًا، يا لغبائي وحماقتي! هي فقـط تريد تذكيري بأنّها ما زالت علـى قيـد الحيـاة، وأنَّها ما زالـت «مريـوم» حبيبتي الغاليـة، وكأنَّها تريـد أن ترسـل لي نـداءً مـن نداءاتها العاجلـة كونها أنثـاي الأولى والأخيرة..

لأكتب رسـالة لها، أقول فيها: «إنني لـكِ أبدًا يا حبيبتي»، فمهما كانت ظنونك بائسـة وغير مصيبة يا «سعيد»، أرى زوجتك «مريوم» بحاجـة إلى غراميـات من هـذا النوع، فهي امرأة رومانسـية تعشـق الوجود الناعم كما تردِّد دائمًا.. آه يا «سعيد»، لو كان الوجود الناعم يُباع في الأسـواق، لكنتَ اشـتريت لها طنًّا منه، لا، فهذا قليل جدًّا، ثلاثـة أطنـان أفضل، مَنْ يعلم، ربما أسـعار الوجود الناعم سـترتفع

قريبًا كما هو حال النفط والبترول، ولِمَ لا؟ «يا لكِ من رائعة يا عاشقة الوجود الناعم».

كنتُ في كلام مع نفسي.. جاءني صوت «عادل»:

- أستاذ «سعيد»، يا أستاذ «سعيد»..

- نعم، نعم «عادل»، ماذا تريد؟

- أين أنت يا رجل، أين كنت؟

- أنا هنا، جالس أمامك، ألا ترى؟

- أقصد إلى أين وصلت؛ كنتَ شارد الذهن يا رجل، ما بك؟

- أجل، نعم.. نعم يا «عادل»، كنتُ منشغل التفكير بزوجتي..

- عسى ما شر..

- خير، ماذا تريد؟

- السيد المدير العام يطلبك في مكتبه..

6

شعرت بالدوار وأنا في الطريق إلى بيتي، كانت الأصوات تكتظ في رأسي، لم تكن شوارع المدينة بريئة كما كانت في الأمس القريب؛ أوساخ، قمامة تتناسل بحرية في المكان، ومنعرجات لعينة، ومطبات، وقواطع طرق، كنت أسأل: «يا خالقي ماذا يجري؟ لمَ هذا الدمار والموت اليومي البشع؟»

لا جدوى من الأسئلة، إنه القدر البغيض، أحاطتني سيارات الشرطة والجيش من كل جانب، أمروني وغيري من سائقي السيارات على جنبي سيارتي بضرورة التوقف فورًا عن الحركة، فثمَّة عبوة ناسفة تحت رصيف أعور، ها هي الكارثة، كم من الوقت نحتاج لرفع العبوة الرجيمة عن مكمنها الملعون؟

لا بأس، إنَّها لم تنفجر، لم يمت أحد، هي عبوة عاق، خانت ثلَّة الأوغاد الذين صنعوها، والسفلة الذين دسوها في أحد جحور هذا الرصيف المسكين الذي أهملته بلدية العاصمة منذ عهد غابر.

جاء فريق تفكيك العبوات.. في تلك اللحظة، قررتُ أن أستمتع بعملهم المجهري الذي غالبًا ما يوصف بالبطولي، وهو كذلك حقًّا

لما فيه من مخاطرة قاتلة.. عاينتُ أحدهم يتقدَّم نحوها، بدا كالأسد الصؤول وهو يُقبل على ذلك اللغم الملعون، ها هو يبتسم لمن يرمقه بعين الخوف عليه من مراقبي المشهد، يجلس عند الرصيف الأعور بحذر شديد التيقُّظ، يستكشف حالة العبوة الخائبة من كل الجهات، يمدُّ أصابعه نحوها برفق، أراه جيدًا وهو في مكانه، أقول: «يا رب احفظه»، أتوسَّم بالرحمن خيرًا، ها هو يمسكها بحذر، يسحبها من كهفها القذر حزينة باكية نائحة بأنَّها لم تغرس حشواتها النارية السامة في جسد طفل أو امرأة أو شيخ مروا من جانبها، ربما كنتُ أنا ضحيتها أو غيري، لكنها الرحمة أنقذتنا..

ها هو الشرطي الصنديد يضحك منتشي السريرة كونه أبطل مفعولها: «كم أنت رائع يا رجل!».

حدَّثتُ نفسي بصوتٍ خفيضٍ إعجابًا ببطولته، ها هو يجرُّ العبوة من أذنها، يحملها بين يديه وسطَ تصفيق جميع مَنْ كان يرصد الحالة بخوفٍ وترقُّبٍ على حياة الضابط المنقذ..

أومأ لنا كبير الشرطة والجيش بأن ننطلق صوب مجهولٍ آخر..

7

راقت لي فكرة الذهاب إلى بيت أم «مرهون»، لكنني عدلت، وبدلًا عن ذلك توجَّهت إلى منزلي لكي أبدأ بقراءة مخطوط الرواية..

في طريقي إلى هناك، ومض في ذهني عنوانها «ينحني الصابر للوجع»، وبقيت أعيد لفظه بصوتي:

«ينحني الصابر للوجع»،

«ينحني الصابر للوجع»،

«ينحني الصابر للوجع»،

حتى ترسَّخ في ذهني أكثر، وأخذت أتأمَّل دلالة كينونته كقارئ، تساءلت: «من أين جاء مرهون بهذا العنوان؟»، «مرهون يعشق التناص»، هكذا يقول النقَّاد عنه، خصوصًا أولئك الذين درسوا أغلب سردياته القصيرة والطويلة التي ظهرت تباعًا.

تناولت مخطوط الرواية قارئًا له حتى إنني نسيت خلع حذائي المعفر بأتربة شوارع العاصمة، كان شوقي عارمًا للنظر في العنوان،

نعم، إنه هو نفسه: «ينحني الصابر للوجع»، «ينحني الصابر للوجع»، «ينحني الصابـر للوجع»، حتى صار همِّي معرفة أصل هذا العنوان، فهـو ينزف شـعرًا، بـل ربما هو الشـعر/ الشـعر، هل لي الاسـتعانة بصديق؛ شاعر أو ناقد أو قارئ شعر؟

أنـا على يقين من أن «مرهون» كان يقرأ الشِّـعر أكثر من السَّـرد، «ولكن بأي الأصدقاء أتصل؟». سألت ذاكرتي.

داهمنـي النعـاس، لكن عنـوان الرواية «ينحنـي الصابر للوجع» تمكَّن من طرده وهو العالق بقوة في ذهني، اتصلتُ بـ «عبد الرحمن الشـكري»، قارئ الشـعر الأُورُبي المعاصر، وسـألته عن الموضوع من دون منحه أي معلومة عن رواية «مرهون»، فقال لي:

«أتذكَّر أنني قرأته في قصيدة لشـاعرٍ ما قد تكون مترجمة أو غير مترجمـة أو قرأهـا لي أحد الأصدقاء بلغتهـا الأصلية، ولكن مَنْ هو الشـاعر؟ أقترح عليك يا سـعيد أن تسـأل صديقنا حسـن المزهون، فهو قارئ عرم للشعر غير العربي».

يسـكن المزهـون فـي مدينة بابل جنـوب غـرب العاصمة، لكن الطريق إلى بابل يثير في نفسـي الأسـى، بل والخـوف أيضًا: «كيف أصل إليك يا حسن يا المزهون، كيف الوصول إليك يا حسن وبيننا اللطيفيـة وعصابـات جـزِّ الأعناق من الذين ينتشـرون في بسـاتينها هناك كالغربان العطشة لدماء البشر؟».

قـرَّرت البحـث عن وسـيط، سـأتصل بعمِّـي أبو «مريـم»، والد زوجتي، ليذهب إلى منزل المزهون.. ويسأله عن الموضوع.

اتصلت به، قال لي: «إنه رأى المزهون صباح اليوم، كان مريضًا، وسألني عنك وعن المرحوم مرهون، وقال: إنه سيكتب قصيدة رثاء لموت هذا المبدع الكبير».

وجدتُ في هذا التعاطف مخرجًا للأمر، عمِّي أبو «مريم» بطيء الحركة، قليل المشي، لا يخرج كثيرًا من منزله، يخاف من العبوات الناسـفة والمفخخـات والانتحاريـين، لكنـه الرجل الشـهم عندما تطلب كرمه.

فـي تلـك اللحظات، شـعرت بالتعـب، قلت لنفسـي: «لو أدسُّ جسدي بين شراشف مرقدي سيكون أفضل لي لكي أرتاح من عناء يـوم ثقيل الهـمِّ من أيام حياتنا التي أمسـت تقضمنا لحظة إثر أخرى من دون حياء أو أسف..».

مـرَّة أخرى، دقَّقت في عنـوان الروايـة، أردت الاطمئنان، فكان هو نفسـه: «ينحني الصابر للوجع»؛ لكنها الأسئلة عادت من جديد: «مـن هـو الصابر يا مرهون؟ ما هـو الوجع يا مرهـون؟ لماذا ينحني يا مرهون؟».

سبقتني دموعي، ولا أعرف لماذا شعرتُ بالحاجة إلى البكاء في تلك اللحظة؟ في تلك اللحظة قلت: «طوبى لك يا مرهون، واللعنة على كل ما يجري لنا..».

8

رنّ جرس هاتفي، كانت الساعة الثامنة مساءً، تركت مرقدي خلفي، لا ضوء سوى الظلام وهو يخنق أنفاسي ومنزلي، دخلت الحمَّام لأرشَّ ماءً على وجهي، لكنه الضوء عاد لينتصر على العتمة المقيتة، يا لها من رحمة في عالم لا رحمة فيه! وهل هناك أرحم من أن يأتيك الضوء من الشركة الوطنية؟ أجبت: «أكيد، لكن هذه الرحمة لن تدوم، نصف ساعة أو أقل، تلك هي عطية الأقدار حتى ينتعل الضوء مداسه ويقفل متواريًا عنَّا ليحلَّ ضيفًا عند غيرنا».

في هذه الأثناء، تذكَّرت أنني لم أتواصل مع «مريم»، فاتصلتُ بها، لكنَّها لم ترد، اتصلت ثانية وثالثة، لا ترد، رميت هاتفي على أريكة الصالة بعد أن بصقت على هامته.. حتى أنت أيها الصغير الجديد على حياتنا لا تريد أن تحقِّق أمنية رجل يريد سماع صوت أم عياله؟ كم أنا أهبل! أي عيال؟ أين هم العيال؟ «مريم» لا تحبل.. لكنها ستحبل يومًا، أنا رجل معطاء، وعطائي الساخن لزج جدًّا، بل «دبق»، كما يقول القاص «محمَّد مزيد» في أحاديثه اليومية بمقهى حسن عجمي، هي تقول ذلك دائمًا.. أكيد تراها يا «سعيد» ستحبل

وتجعل بنات الجيران يرقصن بدفوف الغيرة.. ولو رُزقت بصبي ترانـي سأسـميه «مرهون»، وليخسأ الموت، نعم لتخسأ أنت أيها الموت، لتخسأ يا ثقيل الظل.. لتخسأ أقول لك.

آه.. ماذا دهاني؟ من أين لي هذ الغلو؟ ما لي أنا والموت؟!

أتمتع كثيرًا عندما أدخل مطبخي - أو مطبخنا، كما تقول «مريم» - أشطف الصحون، أُعمِّر إبريق شاي، إبريق شاي إنساني، لكنه ليس جدليًّا، ولا ماركسيًّا، ولا براجماتيًّا، ولا حتى فرانكفونيًّا، إنه إبريق شاي إنساني والسلام..

كانت تلك مُداعبات «مرهون» عندما يأتي إلى منزلي لنستمتع بالأحاديث معًا ليس بعيدًا عن رائحة الشاي التي تُضفي على اللقاء عطره المداعب..

رنَّ هاتفي اللعين، حسبته عمِّي، والد زوجتي، لكنها ابنته الغالية «مريوم»:

- أهلًا يا روحي، كيف حالك؟

- أنا بخير، اليوم تعبت كثيرًا..

- لماذا؟

- جاءتنا مُعزِّيات من مدينة الكوفة، أقصد نساءً وليس رجالًا، نساءً كثيرات، كوفيَّات من قريبات أم «مرهون» البعيدات، ولكن هل تعلم يا «سعيد»؟

- ماذا أعلم؟

- واحدة من الزائرات خطبتني من أم «مرهون»!

- ماذا؟ خطبتك؟

- أي وحياتك يا «سعيد»، ووصفتني بالحلوة والحبابة..

- طبعًا يا أميرتي، أنتِ حلوة الحلوات، وأميرة الأميرات، ورائعة الرائعات، أنتِ زوجة «سعيد الدهان»، أنتِ الحبابة..

- «سعيد»، لا تسخر مني رجاءً، إعجاب المعزيات بي أزال عني تعبي..

- لا أبدًا، أنتِ تعرفين أنكِ قمر «سعيد»، وأبو «سعيد»، وعشيرة «أبو سعيد»، لكنني اليوم مُتعب جدًّا.

- لماذا؟

- أخبرتك سابقًا، بأن عنوان رواية مرهون هو «ينحني الصابر للوجع»، وهذا العنوان أذلَّني، أعتقد أنه عبارة عن مقطع شعري من قصيدةٍ لشاعرٍ ما، اتصلت بأصدقاء وسألتهم عنه فلم أجد جوابًا، حتى إنني اتصلت بوالدكِ، وطلبت منه الاتصال بصديقنا «حسن المزهون»، أنتِ تعرفينه..

- ما الذي تريده من «المزهون»؟

- قلت مع نفسي: ربما يعرف اسم الشاعر الذي كتب هذا البيت الشعري.

- ولِمَ لا تسأل زوجتك، أنا أعرف مَنْ هو الذي كتبه!

- بمعبودك!؟ أخبريني لكي أرتاح من هذا العناء؟

- هل تذكُر يوم كنَّا مع المرحوم «مرهون» في شارع المتنبي، هل تذكُر أنه قال لصديقه المترجم الذي يعيش خارج الوطن وجاءه بعد غياب، لا أتذكَّر اسم المترجم، بأنه سيختار مقطعًا من قصيدة لشاعر نمساوي أو ألماني كعنوانٍ مقترحٍ لرواية يكتبها؟

- نعم، نعم، نعم يا «مريم»، أنتِ عظيمة، أما أنا فحمار؟

- لا يا حبيبي، أنت لست حمارًا، أنت زوج «مريوم» الحلوة، كيف تقول عن نفسك ذلك؟

- وأنتِ أيتها الرائعة زوجة «سعيد» الذي لم ينتبه لذاكرة زوجته المتوقدة، ولكن هل تذكرين لي اسم الشاعر؟

- بماذا ينفعك اسمه، تراه شاعرًا وكفى؟

- بربكِ يا «مريم»، أرجوكِ، هل تعرفين اسم الشاعر؟

- قل لي أولًا: هل تهواني؟ هل أنا عروسك الحلوة إلى الأبد؟ هل أنتَ راضٍ عني؟ هل تحبُّ الأشياء التي أعطيك بعضها في أثناء..

- نعم، أشـهد بحبي لكِ، وأشـهد أنكِ عروسـي الأبدية، وأنا راضٍ عن طبخـك ونظافة منزلنـا، وروحك اللطيفـة، وألوانك الزاهية، وملابسك الشفافة، وأحبُّ كثيرًا تلك الأشياء التي.. التي..

قاطعتني:

- «تراكل»..

- ماذا؟

- «جورج تراكل»، ذلك هو اسم الشاعر.

- وكيف عرفتِ اسمه؟

- أخبرني به المرحوم «مرهون» نفسه يوم جاء بيتنا ليهدينا مجموعته القصصية التي صدرت آنذاك «غيوم رماديَّة».

- يا لكِ من عظيمة! أقصد امرأة عظيمة! كيف غاب عني ذلك، نعم اسـمه «جورج تراكل»، أتذكَّر ذلـك اللقاء.. أنتِ رائعة يا «مريم»، رائعة يا..

قُطع الاتصـال، انتهى الرصيد، حاولت التحقُّـق منه، انقطع تيار الكهربـاء، وصلتني رسـالة من «مريـم»، تقول: «عليـك أن تعترف بأنني ذاكرتك.. المخلصة مريوم»..

فكتبت لها: «أشـهد أنَّكِ ذاكرة الدنيا يا أروع امرأة فيها.. زوجك المخلص».

شعرت بالراحة، رغم الظلام الحالك الذي حلَّ ضيفًا لئيم الوجه في تلك اللحظة، كان يجدر بي التوافر على طاقة كهربائية، لكنَّني وجدتها فرصة لأستلقي على أريكة الحديقة، فالظلام صار صديقنا المملّ جميعًا، ورحت أفكِّر في حال اللحظة؛ لحظة رواية «مرهون»، يجب عليَّ الآن كتابة رسالة للناشر، أقول فيها: «إن الرواية قيد المراجعة النهائية، وستصلك عمَّا قريب كاملة».

أخذني الحنين إلى «مريم»، يبدو أن الظلام أضاء شوقي لها، «مريم» تعمل من الصباح حتى المساء تحت الأضواء؛ ضوء النهار، وضوء المصابيح، لكنني لا أعرف لماذا، ولمَّا تشتاقني وأنا إلى جانبها في فراشنا، تطفئ المصابيح، وتدسُّ رجلها بين فخذيَّ أولًا لكي تشعل حرائقي، صحيح مَنْ قال: «لكل امرأة نزواتها في لياليها الحمراء»، أقصد طرقها، فجسدها رأسمالها، إنه مدخلها إلى عوالم الرجل السحرية، و..

عاد ضوء الكهرباء، عاد الضوء، أصبحت الصالة مُضاءة، وكذلك المطبخ والحمَّام والحديقة، آن أوان المواجهة الكبرى، أقصد البدء بقراءة مخطوط «ينحني الصابر للوجع»، فالعنوان وقد عرفنا «مرجعيته»، كما يقول النقَّاد، وعرفنا أساليب «مرهون» في الكتابة التي يمارسها عَبْرَ شرعية التناص، وما عليك الآن يا «سعيد»، يا زوج «مريوم» المليحة، سوى أن تبدأ القراءة، ولكن ليس من دون «قوري» شاي يوقظ البصيرة والخيال.

أخذت أقرأ عنوان الرواية، وكأنني اكتشفت سره، ولكن «العبرة أو الحكمة»، كما كان يقول أبي، رحمه الله: «ليست في العناوين إنما فيما وراءها».

وضعت صفحة العنوان جانبًا، قرأت الإهداء: «إلى أمي.. لا ترحلي عنِّي.. سامحيني..»، آهٍ يا «مرهون»، ها أنتَ رحلت عنها إلى هناك.. رحلتَ وتركتها وحيدة، أنتَ الذي رحلت، لماذا هذا الإهداء؟ لماذا أمكَ؟ لماذا الرحيل.. لماذا؟

أربكني هذا الإهداء، أخذت أتضاءل صوب داخلي، نحّيت الأوراق دامع العينين، خرجت إلى الحديقة لكي تهطل دموعي أكثر علّها تحرّرني ممّا أنا فيه، اتكأ وجهي ذليلًا على جذع النخلة العالية، أخذت أبكي..

لماذا هذه القسوة يا مرهون؟ لماذا؟

ها أنتَ رحلت عنها قبل أن ترحل هي عنك، طعنتها في الصميم يا أخي وصديقي الغالي، أما كان لك التريث قليلًا؟

سامحني إذ أضعكَ الآن في مقام الرجل المُعاتَب وأنتَ هناك.. هناك في العوالم الخالدة وقد حرَّرت نفسك من كدِّ الدنيا، من عنائنا نحن الذين يرحل أحب الناس عنَّا إلى غيابٍ قاسٍ..

تركتُ الحديقة شطر صومعة نومي، رميت بجسدي على سريري حزين الحال بأمل العودة إلى قراءة المخطوط ثانية، لكنني

لم أجد نفسي إلَّا في صباح يومٍ تالٍ على وقع أصوات انفجارات، وانفجارات، وانفجارات تتناهى إلى مسامعي تردُّدات أصواتها كالزعيق المخبول..

«أيُّ قهرٍ مبتذلٍ هذا الذي لا يفتأ يُداهمنا في كل لحظة؟ يا تُرى، مَنْ هم الذين سيرحلون هذا الصباح؟ أو مَنْ هم الذين رحلوا فعلًا هذا الصباح؟ مَنْ هم الصابرون الذين انحنوا للوجع القاهر هذا الصباح؟».

9

سرتُ إلى عملي حاملًا مخطوط الرواية، شعرتُ بأنني أرتكب حماقة باليـة؛ فماذا لـو أصاب سيارتي وبدني أحد الانفجارات؟ كانت أسئلة حائرة قلقة في آنٍ واحدٍ..

في طريقي إلى مكتبي، سلَّمني «عادل» مجموعة مغلَّفات، قرأتُ الأسماء من دون أن يكون لـ «مرهون» أي نصيب فيها.

شعرت بالحاجة إلى قراءة مخطوط الرواية. تركت صفحة العنوان، وكذلك صفحة الإهداء، وبدأت بقراءة الفصل الأول لأفني قرابة ساعتين ونصف الساعة من دون دخول أي شخص إلى مكتبي، لا أحد من الموظفين جاء إلى عمله اليوم، يبدو أن الانفجارات الدموية منتشرة في كل أحياء العاصمة، وجدتها فرصة لكي أمتشق سيجارة أو أكثر لأحصل على سكينة ما تُريحني من آلام أثارتني وأنا أفهم مضمون حكاية الفصل الأول.

أمضيتُ قرابة نصف الساعة في تلك الاستراحة، أحرقت خلالها أربع سجائر على بكرة أبيها، عدتُ إلى مكتبي لأبدأ بقراءة الفصل

الثاني، لكنَّ عيني سقطتا على ملفوظ «الفصل الثالث»، قلت لنفسي: «يا للهول! أين ذهب الفصل الثاني؟».

ناديت:

- يـا «عـادل».. «عادل».. هل دخل أحد ما إلـى غرفتي؟ هل جلس أحد إلى مكتبي؟

- كلا يا أسـتاذ «سـعيد»، أنت تعرف أننا، أقصد أنـت وأنا، فقط في الوزارة، جميع الموظفين عالقين في زحمة الطريق.

- مصيبـة، مصيبة يا «عادل»، كانت هنا بعض الأوراق المهمة على مكتبي، لكنها الآن منقوصة العدد، أقصد مفقودة، أين ذهبت؟

- لا أعرف يا أستاذ «سعيد»..

صـرت ألوم نفسـي: «الويـل لك يا سـعيد، هل أضعـت الفصل الثانـي، دعنـي أدقِّق فـي كل الفصول؛ الفصـل الأول قرأته وها هو، والثانـي هرب منـي، والثالث موجـود، والرابع كذلـك، والخامس مفقود. يا للهول، ها هي الكارثة، أين بقية الفصول؟ هل نسـيتها في المنـزل؟ كلا، كلا، هـي كذلـك بحزمتها ولم ينفرط مني أي شـيء منها، الويل لك يا سعيد، الويل لحظك الأغبر، الويـ..».

دوي انفجـارات متتالية رجَّـت أمكنة لا أعرفها، دوي آخر وآخر أيضًا: «يا جبناء، ما الذي تريدونه منَّا؟»

10

وصلتُ إلى منزلي بعد أربع ساعات ونصف الساعة، دخلت إليه كالمجنون، لم أجد شيئًا.

أيـن ذهبت الفصـول الضائعة يا «سـعيد»، أين؟ كلا هي ليسـت ضائعـة، ربما أكون نسـيتها في مـكانٍ ما، الحمَّـام، المطبخ، حجرة النـوم، الحديقة، المكتبة، المرحاض، الويـل لي، أين ذهب الفصل الثاني، أين ذهب الفصل الخامس؟ أين اختفيا؟

اتصلـت بـ«مريـم»، أخبرتها بما جرى، طلبت منها أن تسـأل أم «مرهـون»، فقالت: «نائمة»، طلبت منها البحث في مكتبة «مرهون» عـن أوراق مـا ربما تجدهـا تحت سـريره، قالت: «الغرفـة مقفلة»، سـألتها البحث عن أيِّ أوراق مكتوبة بأصابع «مرهون» في الصالة، في أي مكان، في أيِّ زاوية.

اتصلت «مريم» بعد ساعة وهي تقرأ لي تباعًا عناوين بضع أوراق عثـرت عليهـا، فلم تكن ما أريـد.. قلتُ لها: «ابحثي جيـدًا يا مريوم أرجوكِ، أيقظي أم مرهون من ضحوة نومها، اسأليها عن الموضوع،

وادخلي معها إلى مكتبة مرهون لعلَّكما تجدان شيئًا ممَّا أفقده الآن من الرواية؟»

أمضيت مسائي جيئة وذهابًا داخل الصالة، في الحديقة، أذهب إلى المرحاض، أخرج منه إلى الحمام، أصعد إلى سطح الدار كأنني مجنون، خصوصًا عندما يغيب ضوء الكهرباء عن المنزل والحديقة والشارع والحي.. نسيت طعامي ونكهة الشاي، انقضضت على علبة سجائر كاملة، وتناولت الثانية..

يا للهول! أخشى أن أكون أنا الذي تفلتت منه الفصول إلى ضياع؟ كلا، نعم، كلا، كلا، الفصول هنا منذ أخرجتها من الصندوق، إنها الرزمة نفسها..

تراني أنتظر مكالمة من «مريوم»، وأنا أعرف أنَّ رقاد أم «مرهون» ثقيل، فهي امرأة عجوز، تنام مبكرًا وتصحو باكرًا.. كنت أنتظر خبرًا عن الموضوع ولكن من دون جدوى، أعدت تقليب أوراق الفصول.. نعم، الفصل الثاني والفصل الخامس هربا من الملف، ضاعا أو سُرقا، كل الاحتمالات ممكنة في زمن فقد فيه اليقين كبرياءه، والإنسان كرامته، والذاكرة نصاعتها..!

رنَّ هاتفي الجوال:

- نعم «مريم»، هل عثرتِ عليهما؟

- سألتُ أم «مرهون»، فقالت إن الأوراق كانت في المستشفى مع «مرهون» يوم وفاته، وسلَّمها لها الطبيب عندما كانت تبكي ولدها لحظة سماعها نبأ وفاته.

- هذا يعني أنَّ الفصلين، ربما فُقدا في المستشفى، الويل، الويل لي.. أريد الذهاب إلى هناك.

- أنت مجنون، هناك منع تجوال، الصباح رباح يا «سعيد»، لن تذهب الأوراق، لن تضيع، ربما ما زالت في المستشفى، اهدأ يا رجل..

- لا بأس يا «مريوم»، الصباح رباح، أشكرك عزيزتي، أنا متعب، أحتاج إلى هجعة نوم مريحة.. إلى اللقاء.

تعيسة كانت ليلتي، لم أنم، أمضيتها والأرق يحتفل شامتًا بي حتى زعزع كياني، وجدتُ من الأفضل أن أرتمي على مهادي، والصباح رباح كما قالت «مريم»..

11

أيقظني رنين هاتفي الخلوي، سألتني «مريم» عن حالي في ليلتي التي مضت، أخبرتها بأنَّني أكابد صداعًا حادًّا، قدَّمت لي وصاياها الطيبة المعتادة، وحدَّثتني عن حوارها الواضح مع أم «مرهون» حول صفحات الرواية، وتأكيدها لها أنَّ الملف كله كان بحوزة «مرهون» في المستشفى، وهذا ما زاد حماستي لكي أنطلق صوب المستشفى مستعجلًا خطاي..

أحرقتُ ثلاث ساعات من الوقت حتى وصلت إلى هناك، ذهبت فورًا إلى القسم الذي كان «مرهون» راقدًا فيه، سألتُ الموظفين عن الطبيب «أحمد الجبوري» الذي كان يُعالج المرحوم، فقالوا لي: «سيأتي بعد ساعتين»، ذهبت إلى السرير الذي كان عليه «مرهون»، وجدت شابًّا للتو لفظ أنفاسه الأخيرة: «يا إلهي! أكل مَنْ يرقد على هذا السرير يرحل!»

كلا، أصبح الموت معتادًا، رخيصًا، لا ثمن له، أولاد الشر يذبحون الناس على الهوية والمذهب والدين والثقافة والعرق والأصل.. أيها الشر الرجيم ما الذي تريده مني ومن غيري في وطن

يتهاوى؟ اللعنة عليك، اللعنة، اللعنة عليكم، لقد بصقتم في نعمة وطنكم، في صحنه وفي ماعونه، جميعكم نذل، جميعكم خائن لقيمة الإنسان، أيها القتلة والذبَّاحون والمفخخون، أنتم خونة كبار لبنيان الله في أرضه، عليكم اللعنة.

لكي تنتظر في مستشفى ما، عليك أن تبكي ألف مرَّة، ففي كل خمس دقائق تودِّع راحلًا وتستقبل جريحًا، وتبكي لعويل الأمهات الثكالى بموت عزيز عليهن..

سألتُ إحدى العاملات في المستشفى عن الدكتور «أحمد الجبوري»، فقالت لي: «إنه جاء قبل لحظات، وهو الآن في مكتبه».

هرعت إليه، فلم أجده هناك، وجدتُ عند بابه امرأة تلطم خدها وتصيح: «وليدي راح يموت»، سألتها: «لماذا؟»، قالت: «يحتاج إلى دم»، قلت لها: «هيا.. انهضي؛ لنذهب إلى المختبر، وإذا طابق دمي دم ابنك سأتبرَّع له».

ذهبنا معًا صوب المختبر، كانت في أثناء ذلك تُقبِّلني من رأسي وتشكر فيَّ همتي ومروءتي حتى أخذوا عينة من دمي، وجاءوا بعد عشر دقائق ليقولوا لي: «دمك مطابق»، فقلت: «هيا إلى التبرُّع».

شعرت بالارتياح أن دماءنا تذهب إلى بعضنا ولا يبتلعها أسفلت الشوارع والأرصفة أو يحرقها بارود المفخخات الفاتك..

ومـن بعيد لمحتُ الدكتـور «أحمد الجبوري»، جاء يسـأل عني بوصفي أحد المتبرعين للتو بكيس دم إلى صبي يحتاجه..

شـكرني، وأثنـى على إنسـانيتي، فقلت لـه: «أنا بحاجـة إليك يا دكتـور لأمر شـخصي»، فذهبنا معًا إلـى مكتبه، وأخبرتـه بما جرى لفصول الرواية، فقال:

- أتذكَّـر ذلك، أنـا أعطيـت الأوراق جميعها إلى والـدة المرحوم، لكـن موظفًا لدينا هـو الذي جاء بتلك الأوراق إليَّ، وأظن اسـمه «أبو نادية»، لكنه الآن في إجازة..

طلبـت من الدكتـور عنوانًا أو رقـم هاتف يصلنـي بالرجل، قال لـي: «إنه رجل مُسـن، أقتـرح أن أبحث لك عـن عنوانه لكي تذهب إليه..».

فوافقـت علـى الفـور، وأخذت العنـوان من زميل لـه في العمل بواسـطة الدكتور «الجبوري»، شكرته وشكرني، وتوجهت لأبحث عنـه، «أبو نادية» الكنز القادم الذي ربما يحتفظ بفصلَي الرواية، وأنا أسـأل: «كيـف لي الوصـول إلى أبي ناديـة؟ هل أذهب إليـه الآن أم غدًا؟»

رأيـتُ من الأفضل، الذهـاب إلى بيت أم «مرهـون» لكي أراها، وبالمرَّة أرى «مريم»، «تلك فكرة صائبة يا صديق مرهون الوفي..»، قلت شادًّا عزيمتي.

12

لمَّا دخلت إلى بيت أم «مرهون»، استقبلتني هذه المنكوبة برحيل وحيدها الذي تبقَّى لها من رحمها بوجهٍ بشوشٍ، استغربت الأمر، طلبت مني الجلوس في المطبخ، وقالت: «طبخت لك اليوم ما تحبه من طعام؛ الباذنجان باللحم المهروس».

دُهشت لكلمة «طبخت لك»، فالمعتاد أن أم «مرهون» لا مزاج لها في الطبخ منذ وفاة ولدها.. سألتها:

- أين «مريم»؟

- نائمة في غرفتي..

لمحتها تبتسم وهي تضع الرُّزَّ في الصحن، شعرت أن أمرًا ما يجري هنا، لكن أم «مرهون» داهمتني بسؤالٍ أربك موازيني كلها:

- «سعيد»، لو رُزقت بولدٍ فبماذا ستسميه؟

قلت لها بسرعة فائقة:

- «مرهون».

وضعــت الصحن جانبًا بســرعةٍ فائقةٍ، والتفتــت نحوي لتضمني إلى صدرها، وأخذت تبكي باسمة الوجه:

- ربِّ يُعلي من شأنك يا بني، اذهب إلى «مريم» فهي حبلى..

- حامل، حبلى، ماذا تقولين يا أم «مرهون»؟

قبّلتها من رأسها، وقلت لها والبكاء سيدنا في تلك اللحظة:

- اللــه يبشــرك بالخير، ســيكون «مرهون» الصغير ابنـك وليس ابننا فقط، أنا و«مريم».

- يكرمــك الرحمن بالخير.. اذهــب إلى «مريم»، أيقظها، كانت تود إخبارك، لكنها نامت، تراها متعبة.

دخلــتُ علــى «مريــم»، وجدتهــا مســتلقية قريرة العين، شــعرها المبذول الجدائل يغطِّي نصف وجهها بعذوبة نشوى، وكفها اليمنى على بطنها كأنَّها تطمئن على جنينها..

وضعــت قبلــة رقيقــة على رأســها، ومثلهــا ناعمة علــى خديها، رفعتْ محياها البهي نحوي والنعاس يغالبها:

- مؤكَّد أنك عرفت الخبر؟

- مُبارك لنا هذه الرحمة، حبيبتي وغاليتي وعمري وروحــي.. اتفقنا، أنــا وأم «مرهــون»، علــى أنــه إذا رُزقنا بولدٍ فســوف يكون اســمه «مرهون».. سيكون ذلك مبهجًا لها، أليس كذلك؟

وجدتها وقد غمرها الفرح، وسرعان ما راحت تضمُّ رأسي إلى صدرها بحنوٍّ وطمأنينة لم أعهدهما منها سابقًا، كنَّا ننتظر ذلك منذ سنوات، وها هو الوعد يفي بكرمه.. قلت لها:

- تعالي لنخرج إلى الصالة لكي أراكِ وحميلكِ أمًّا واعدة، انهضي أميرتي، فأم «مرهون» طبخت لنا اليوم ما نحب ونشتهي ابتهاجًا بحملكِ الذي انتظرناه طويلًا..

لأول مرَّة، ومنذ رحيل «مرهون»، وجدت والدته تبتسم وتضحك، ربما تُجاملنا، لكنني أعتقد أن فرحها حقيقي وهي التي تعرف كم انتظرنا مولودًا، أنا و«مريم»، وها هو في رحم أمه ينمو ولكن على وقع أصوات الانفجارات والعبوات الناسفة، ولا بأس، فالله الذي خلقه يحميه ويحمينا من أي مصائب محتملة..

بعد جلسة الطعام المُلذ، أخذتنا حكايات أخرى، إلا أنني عدت إلى موضوع مخطوط الرواية، شرحت لأم «مرهون» التفاصيل حتى أخبرتني بأنَّها متأكِّدة من استكمال «مرهون» كتابة فصول الرواية، وأنَّها تتذكَّر تلك الليلة التي سهرت مع ولدها الراحل، وقالت: «أنا رقَّمت صفحاتها، هو طلب مني ذلك، وأنا أعرف أنَّها اكتملت، حتى إن مرهون كان يقرأها وهو على سرير المستشفى، وأخبرته بأن يترك قراءتها حفاظًا على صحته، لكنَّه رفض وقال لي: قرأتُ

كل الفصول سوى ثلاث صفحات أخيرة، الرواية كاملة يا أمي، لقد أهديتها لك يا غالية».

سألتُ «مريم»، فيما إذا كانت تريد العودة إلى منزلنا، لكنَّها أخبرتني بأن والديها سيأتيان غدًا إلى بيت أم «مرهون» لتقديم العزاء، وقالت لي: «من الضروري أن تكون موجودًا».

اتفقنا على أن أعود إلى منزلي وحيدًا في ظل شعور بالأبوة غامر هو الأول من نوعه نما في روحي ونفسي وكياني وضميري.

يا للوعد! شخص يغيب وآخر يحضر أو سيحضر قريبًا، «مرهون» الكبير رحل، و«مرهون» الصغير سيأتي..

13

في طريقي إلى منزلي، شعرتُ بالحاجة إلى الجلوس عند شفا النهر، أنْ أكون عند نهرٍ جارٍ في مساءٍ هائمٍ، كم أنا بحاجة إلى دفق الماء في نهر!

ذهبت إلى هناك والغروب قد حلَّ ضيفًا على المدينة الحزينة..

جلست عند حافة النهر متأمِّلًا ما يجري، أصوات الحيوانات المائية ونصف المائية تتعالى بخجلٍ وهي تمارس ألعابها النهرية المحبَّبة إلى نفسها، ربما كنتُ أنا الشخص الذي يخيفها أو يثير شهواتها اللعبية أو الجنسية! ولكنني شردت بأفكاري بعيدًا، وسرحت بخيالي إلى الوعد القادم، بدأت أفكِّر في عطيَّة الخالق لنا، أفكر في طفلنا الموعود الذي سيأتي كأيقونة أمل يقف بوجه أي غياب أبدي أحمق، وليُّ عهدنا المُنتظر «مرهون» الصغير.

يا إلهي اجعله ولدًا لكي يأخذ هذا الاسم، ليس لكي أغتبط أنا لوحدي، بل لكي يبعث السرور أيضًا في قلب أم «مرهون» المفجوعة بالغياب المتكرر..

رنَّ هاتفي الخلوي، كان عمِّي، والد «مريم»، أخبرني بأنه سيأتي غدًا إلــى العاصمة برفقة عمَّتي، وبارك لي حمــل «مريم»، وأخبرني بأنه التقى الشاعر «حسن المزهون»، وطلب منه الاتصال بي.

شــكرته على كل شيء أخبرني به، وعدتُ إلى مسائي المائي مع النهر، تدفَّأ صدري بدخان السجائر.

رنَّ هاتفــي مرَّة أخــرى، ما كنت أعرف صاحــب الرقم حتى قال إنه «حســن المزهون»، تحدَّثنا طويلًا، وأخبرني بأن البيت الشــعري «ينحني الصابر للوجع» ورد في قصيدة للشاعر «جورج تراكل»، وأنه أحد أبيات قصيدته الشهيرة «في ألبوم الضيوف»، أو «الضيوف»..

شــكرته على ذلــك كثيرًا، لكــنَّ مكالمتــه أعادتني إلــى موضوع الروايــة ثانية حتى نسيت أنــي قريب من جرف النهــر الذي أخذت أمشي على طينه ويابســته متأمِّلًا قضية غياب الفصلين عن مخطوط الرواية..

كنت أمشــي مــن دون وعــي بالمكان حتــى وجدت نفســي عند الجســر الذي يقطــع حافة ماء النهــر الجاري الذي يشــطر العاصمة الحزينــة إلــى صوبيــن، فعــدتُ أدراجي أمشــي عند الحافة نفســها، أســمع نقيق الضفــادع، أرى ســمكة صغيــرة تهرب من عمــق الماء إلى ســطحه، أضحك، أنتظر كرنفالها مــرَّة أخرى، لكنها تبدو ذكية، غطست نحو الداخل ولم تخرج..

تذكَّرت مخطوط الرواية، ليس لي سوى الحاج «أبو نادية»: «أين أنتَ يا رجل، هل أجد عندك ضالتي؟». تساءلت.

«موعدنا غدًا»، هكذا قلت. وقررت العودة إلى منزلي، فالليل الغاسق حلَّ بعتمته الصامتة، وصار الوقت يدنو من العاشرة..

«هيَّا إلى البيت يا سعيد، يا والد مرهون الصغير»، هكذا قلتُ مخاطبًا نفسي، مزهوًّا بما أنا عليه رغم جراحي وأوجاعي..

14

يا لكَ من إنسان مذهل يا «مرهون»! حتى وأنتَ في سرير شفائك العصبي تقرأ مخطوط روايتك، تريد أن تطمئن على وليدك الذي لم تره مطبوعًا في كتاب؟

حدَّثت نفسي بهذا وأنا أتناول طعام فطوري، وعزمي يحثني صوب البحث عن «أبو نادية».

خرجت مسرعًا إلى سيارتي، أخبرني «عادل»، في اتصال هاتفي، بألَّا أذهب إلى عملي هذا اليوم، وقال: «إن سيارة مفخخة انفجرت في طريقٍ محاذٍ لمبنى الوزارة».

تأسفنا معًا لما يجري، فأخبرته بأنني لن أذهب إلى العمل حتى نهاية الأسبوع..

وضعت الورقة التي تضمُّ عنوان «أبو نادية» على المقعد المجاور لمقعدي حتى أراها في كل لحظة، وأخذت أمضي بسيارتي وسط زحام الطرق قاطعًا المسافات، فبيت هذا الرجل يقع في آخر العاصمة، حتى إن موجة خوف وقلق من المجهول اجتاحتني في تلك اللحظة لكوني لم أذهب إلى تلك المناطق من ذي قبل.

صرت أسأل الناس عن الحي الذي يسكنه الرجل، وكلَّما ابتعدت عن مركز العاصمة كلَّما يدلني المارة على منطقة أبعد حتى وصلت إلى معمل الثلج، وهناك أخذت أسأل عن دكَّان «أبو محمود»، أو «بقالة أبو محمود» كما يقول السياسيون العراقيون الجُدد القادمون من بعض دول الخليج، صرت أمشي وأمشي بين الأزقة حتى لاح لي دكان «أبو محمود»، تردَّدت في سؤالي عن «أبو نادية» مباشرة، قلت مع نفسي: «الأفضل لي شراء أي شيء من الدكان ليكون مدخلًا للسؤال عن بيت الرجل الذي أقصده».

دخلت المحل، لكنَّني فوجئت بوجود امرأة في الستين من عمرها أو أكثر.. اشتريت منها علبة سجائر، لكنَّها داهمتني بسؤالها:

- أنت غريب على هذه المحلة؟

أخبرتها بالإيجاب، وسألتها مباشرة عمَّا أريد الوصول إليه، فأخبرتني بالمكان..

شكرتها على مهل، وتوجَّهت إلى غايتي.. طرقتُ الباب، ولكن من دون رد، طرقته مرَّة تلو أخرى حتى فُتح، كان صبيًّا بعينين خضراوين تشعَّان براءة، سألته عن «أبو نادية»، فقال بصرامة حاسمة:

- جدي نائم.. وأمي «نادية» في الحمَّام، ماذا تريد؟

طلبت منه إيقاظ جَدِّه، لكنه رفض، أخبرته بأنني من طرف الدكتور «أحمد الجبوري» فجفل بمكانه، وعاد مسرعًا إلى داخل الحوش، وبعد دقائق خرج «أبو نادية» إليَّ، فتعارفنا، ونقلتُ له تحيات الدكتور «الجبوري»، فرحَّب بذلك، وأخبرته بموضوعي، واسترسل قائلًا:

- أنا أتذكَّر ذلك الرجل الرائع الذي كان يرقد في المستشفى، أحببته كثيرًا، وكنت أنصحه بأن يترك قراءة الأوراق حفاظًا على راحته، لكنَّه كان يقول إنها مجرَّد قراءة. لا أعرف ماذا كان يقرأ، لكنَّني شاهدت رزمة الأوراق لديه، وهو دائمًا يضعها إلى جانبه عندما ينام، وأنت تعرف أن مرضه أو علَّته كانت تجبره على سبات يصل إلى عشرين ساعة في بعض الأيام، وأذكر مرَّة أنني كنت أجلس على مقربة من غرفته فلاحت لي امرأة، وعندما اقتربت من الحجرة أرادت الدخول إليها، فأخبرتها بأن المريض غير مستيقظٍ، لكنها أصرَّت على الدخول قائلةً: أنا زوجة المريض، وأعطتني عشرة آلاف دينار كإكرامية، وقالت: اذهب إلى عملك.. ويومها لم تعجبني صرامتها في الكلام، ولا طريقتها في التصرُّف معي وكأنني أعمل لحسابها.. كان الأجدر بي تركهما معًا، خصوصًا أنها زوجته وجاءت لتزوره، بحسب ما قالت، فبقيت تلك المرأة داخل الحجرة وسط يقيني بأن المريض كان في نومٍ عميقٍ. رجعت بعد وقت لأدخل الحجرة بدعوى الاطمئنان على

المريـض وعليها أيضًا، فلم أجدهـا، فقط كان المريض نائمًا على سـريره كما كان، إلَّا أنني مددت بصري إلى شيءٍ داخل الغرفة لم يكـن طبيعيًّا؛ فالأوراق التي كان المريض يقرأها بتعبٍ، كما كنت أراه أحيانًا، بدت مبعثرة، بعضها ساقط على الأرض، وغيرها على الطاولة المركونة إلى جانب سريره، فجمعتها ورتبتها وأعدتها إلى الطاولة، ومن ثمَّ خرجت، وهذا ما جرى بالضبط.

قلت له:

- صدقت يا عمِّي، أنت إنسان رائع.

لكنَّه تساءل:

- هـل الأوراق التي كان يقرأها المريض مهمة إلى هذا الحد بحيث إنَّـك، وفي مثل هذه الظروف غير الآمنة، جئتَ لتسـأل عنها؟ هل تلك الأوراق تخص ميراثًا للمرحوم؟ هل تخص أملاكه؟

أخبرتـه بالموضوع، وطلبـت منه ألَّا يقلق، فالموضوع بسـيط.. ودَّعته بعد أن دسست في جيبه مبلغًا من المال رغم تمنُّعه لأنه دلَّني على سـارقة الفصلين، الثاني والخامـس، من فصول الرواية، وصار لديَّ يقين بأنَّ «نهى» هي التي سرقتهما، ما يعني أن الرواية تخصُّها، وإلا لماذا تسـرقهما وهي تعرف أن زوجها «مرهون» في طريقه إلى الموت؟

في أثناء عودتي إلى البيت، كانت أسئلة من هذا القبيل تراودني؛ «نهى»، «نهى»، «نهى» هي التي سرقت الفصلين.. لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

«هل لي إخبار والدة مرهون ومريم بالأمر؟ كيف لي التأكُّد من ذلك؟»، تساءلت.

بدت المعلومات التي أوصلها لي هذا الرجل واضحة، فهي تتضمَّن كلامًا عمَّا جرى ليس من باب الظن أو التكهن، بل من باب اليقين.

ولمَّا كانت «نهى» هي التي سرقت الفصلين، وأتمنى أن أكون مصيبًا في ذلك، فإن هناك غاية، بل هناك علاقة بين الرواية وهذه الزوجة المزعجة، الأمر يحتاج إلى تفكير وتفكير مُضاعف.. لا بُدَّ من الوصول إلى منزلي أولًا، وهناك سأعيد على مهل التفكير في الموضوع، يبدو لي أن الأمر صار أكثر تعقيدًا مما سبق.

ولجت داري والظلام يحتفي بسؤدده في كل أرجائه، وكذلك الأمر مع الشارع والحي كله.. كنتُ أنتظر عودة ضوء المصابيح حتى أعيد النظر في المخطوط، أردت قراءة الفصل الأول مرَّة أخرى لعلِّي أجد خيطًا، ربما تكون «نهى» هي «سُهى»، التي ورد اسمها في هذا الفصل من فصول الرواية.

وجـدتُ نفسـي أحتـاجُ إلى مسـاءٍ مُضاء بالسـكينة، أحتـاج إلى استحمام ربما يُزيح عن كاهل جسدي عناء يومٍ عصيبٍ هدَّ مفاصل جسمي... «يا لها من حياة رعناء!»

رنَّ تليفوني الخلوي، كانت «مريم»..

تكلَّمتُ معها، وأخبرتها بأنني لم أجد «أبو نادية»، ووعدتها بأنني سـأجده حتمًا، فقط أحتاج إلى بعض الوقت، لكنها تنبَّهت إلى عدم ارتياحي في أثناء كلامي معها، أخبرتها بأنني بذلت جهدًا كبيرًا نهار اليوم وأنا في طريقي إلى منزل «أبو نادية» من دون ملاقاته..

عندمـا أنهيـت المكالمـة، كلت اللوم لنفسـي؛ فالأجـدر بي ألا أشـعرها بتعبي وقلقي عمَّا سـمعته من «أبو نادية»، كنتُ بحاجة إلى هدوء أكثر وأكثر..

15

قضيت ليل أمس قارئًا للفصل الأول، كانت القراءة الثانية له..

دخلت إلى مطبخي لتحضير طعام لفطوري.. رجعت إلى جلستي في الصالة.. ما زلت أفكِّر في مطلع الفصل الأول الذي جاء فيه:

«ما كان فَجْرِي الأنثوي الثاني يُعوضني خساراتي التي سبَّبها لي موت فَجْرِي الأنثوي الأول».

يا ترى، هل يقصد «مرهون» بالفَجر الأول زوجته الأولى «فاطمة البصري»، وبالضرورة يقصد بالثانية زوجته «نهى»؟

بدا لي أن ما يهم هنا هو ملفوظ «خساراتي»؛ فما الذي خسره «مرهون» عندما توفيت زوجته الأولى؟

حقًّا ما الذي خسر؟

أكيد خسر أنثاه الرائعة التي أحبَّها لسنواتٍ حتى تزوجها، وخسر حبَّها وذكرياته معها عندما رحلت، وأكيد خسر ذلك الجمال الباهر الذي كانت عليه «فاطمة»، وخسر شخصيتها الرائعة التي كانت

عليهـا، بل خسـر تلك «الإلهـة الدنيوية الملهمة» كمـا كان يقول لي منذ عشقها، ومن ثم تزوجها، وبعد وفاتها السريعة والغادرة..

أتذكَّر أيضًا ما جاء في الفصل الأول، وعلى لسـان «سُهى»، التي كانت تخاطب زوجها «رشيد» في الرواية قائلة له:

«عليـكَ أن تخرج من جرح قُمقمِ فَجرك الأول، وإذا لم تنسَ ذاك، فلن أعيش معكَ الحاضر».

مـا يعنـي أن العيـب في «رشـيد»، بطـل روايـة «ينحنـي الصابر للوجع»، الذي لا يريد نسـيان فجـره الأول، أو زوجته الأولى، التي لم يأتِ «مرهون» كمؤلِّف على ذكر اسمها على نحوٍ صريحٍ في هذا الفصل.

عدتُ من جديد لأنظر في هذا الفصل، أبحث في طياته السَّردية عـن مماثلات ونظائـر تحيلني على «نهى»، زوجـة «مرهون»، حتى راقـت لي قـراءة الملفوظ الآتـي، الذي ورد في الفقـرة الأخيرة من فقراته:

«كيـف لي العيـش مع فَجْـرٍ أنثوي خائـن؛ فَجْرِي الثانـي، الذي شـممتُ في جسده ليل أمس رائحة ذكورة عفنة؟ الغريب أن فَجري هـذا تـوارى عـن منزلـي في صبيحـة اليـوم التالـي، استيقظت ولم أجده..».

ماذا يقصد الكاتب بعبارة: «رائحة ذكورة عفنة»؟

شـعرت بالحاجة إلى مزيد من التأمل فـي هذا الملفوظ.. أردتُ أن أضيف مزيد شـاي إلى معدتي، لكنني وجدت الإبريق خاويًا إلَّا مـن طللٍ مبتلٍّ في قاعه، دخلت مطبخي لأُعدَّ الشـاي ثانية؛ فنهاري هذا اليوم سيكون مثقلًا بالتفسير والتأويل لنصوص رواية «مرهون»، وفك شفراتها الداخلية، تلك مَهمة صعبة، لكنني، وبحكم صداقتي الطويلـة لـ «مرهون»، ترانـي أصل إلى بعض النتائـج، أتمنى ذلك، نعم أتمنى ذلك..

وضعـت ملفوظ «رائحة ذكورة عفنة» كما ورد في النَّص، مقابل ملفـوظ «رائحة ذكورة زاكيـة» الافتراضي، والذكـورة العفنة هنا قد تعني خيانة «سُـهى» لزوجها «رشـيد» في الرواية، فهل يعني هذا أن «نهى» كانت تخون زوجها «مرهون» مع رجل آخر في الواقع؟

ربما يقصد بملفوظ «فَجْرِي ذاك توارى عن منزلي صبيحة اليوم التالي»، هروب «سُـهى» عـن بيت الزوجية، وهو الأمر نفسـه الذي فعلته «نهى» عندما هجرت بيت «مرهون» صبيحة يوم لم يكن عاديًّا فـي حياته.. أتذكَّـر ذلك جيدًا، سـيما أن «مرهـون» أخبرني بذلك، وفـي تلك الأصبوحـة المشـؤومة ذاتهـا كان قد تعرَّض إلى نكسـة صحيـة حادَّة، كانت الأولى مـن نوعها تقضم صفاء كيانه النفسـي، لكنـه، وتحت ضغط والدته، أعـاد «نهى» إلى بيته لاحقًا من دون أن

تكـون العلاقة بينهما منسـجمة، وأتذكَّر أيضًا مـا أخبرني به في تلك الأيام عن شروعه في كتابة رواية قال عنها: «ستكون الأخيرة لي»!

عندما انتقلت إلى الفصل الثالث، وجدته يبدأ بالملفوظ الآتي:

«كمـا رأيـت، عزيزي القـارئ، كيـف أن فَجري الأنثـوي الثاني تمادى في إشـباع جسـده بروائح ذكـورة غريبة على فضاء سـريرنا، وهـو أمـر لـم أجده يومًا عندما كان فجـري الأول في ضيافتي الرائعة التي حرمني منها الموت خلسة».

واضـح هنا، أن «مرهون»، وبوصفه ناصًّا لروايته «ينحني الصابر للوجـع»، صار يخاطب القارئ، وهو أحد أسـاليب ما يسـمونه بما وراء الروايـة، بحسـب مـا يقـول «فاضل ثامـر»، أو السـرد المفتون بذاته، بحسب ما يقول ناقد آخر.

يتضـح أيضًـا، أن «سُـهى»، أو الفَجر الثاني، أخـذت تتمادى في خيانة زوجها «رشيد»، فهل يمكن إجراء تطابق مُقارن بين الحالتين؛ حـالـة «مرهـون» + «نهـى» في الواقـع الواقعـي، وحالة «رشـيد» + «سُهى» في الواقع الروائي؟

رنَّ هاتفـي.. أخبرتنـي «مريـم» بوصـول والديهـا إلـى بيـت أم «مرهون»، وطلبت مني الحضور.

16

وأنـا أدنو من باب بيت أم «مرهون»، سـمعت أنيـن بكاءٍ، دلفت إلى الداخل فوجدت عمِّي «أبو مريم» يجلس في الحديقة الصغيرة، كانت عمَّتي «أم مريم» داخل الصالة تبكي لبكاء أم «مرهون».. طلب منـي عمِّـي أن أُهدِّئ من حال النسـوة، فدخلت إليهـن، لكنَّ البكاء تعالـت صيحاته، حتى «مريم» كانت تذرف دمعًا، لكنني طلبت منها غسل وجهها، والأمر نفسه طلبته من عمَّتي ومن أم «مرهون»، طيَّبت نفوسهن حتى هدأ الحال، فدخلن إلى المطبخ سوية..

كان عمِّي قد جلب معه خروفًا و«شوالًا» من الرُّز، وعبوة كبيرة من زيت الطبخ، ركنتها في المطبخ، وعدتُ إليه لكي أحكي له ما جرى، فقال لي: «يا بني، أنت لا تملك نفوذًا ولا سلطة على زوجة مرهون، تلـك حياتهـا، كمـا أنَّها حرَّة فـي التصـرُّف بتركة زوجهـا، الأوراق أو الروايـة هـي جزء مـن التركة الشـرعية، ولـك أن تُقـدِّر الأمور».

بدا كلامه معقولًا لي، لكنه لا يُدرك معنى أن يترك الكاتب رواية، فـ«مرهون الشـاكر» هو شـخص مبدع وليس تاجر سـمك أو سمن أو خشب.

لهذا، وجدت معالجة الأمور بطريقتي الخاصَّة بمشاركة «مريم» والاستعانة بأم «مرهون» أفضل لي وللموضوع، فكل ما أريده هو الفصل الثاني والفصل الخامس من الرواية لكي أرسلها كاملة إلى الناشر.

في السادسة مساءً، أخذتُ عمِّي «أبو مريم» إلى منزلي، وتركت عمَّتي مع «مريم» عند أم «مرهون»، فهن نسوة..

في الطريق، طلب مني عمِّي أن نذهب معًا إلى مطعم ما لتناول العشاء، وأمضينا هناك بعض الوقت، ومن ثم انتقلنا إلى أحد المقاهي لنشرب الشاي، وندخن النارجيلة، وهناك أيضًا فتحنا موضوع زوجة المرحوم «مرهون»، واقترح عمِّي الذهاب إلى بيت أهل «نهى» للحديث عن الموضوع تحت ذريعة تقديم العزاء لها ولأهلها.

رحَّبت بالفكرة، فربما تفتح لي أفقًا أعثر من خلاله على الفصلين المفقودين من فصول الرواية.

17

عندما قام «مرهون» بخطبة «نهى»، وتحديدًا في يوم الخطبة، كنتُ معه وشقيقه الشهيد المرحوم «حسين الشاكر»، الذي قطع مجرمو الجهاد الكاذب رأسه عن بدنه.. أتذكَّر تلك المناسبة جيدًا عندما ذهبنا وأم «مرهون» معنا إلى بيت أهل «نهى»، أتذكَّر المكان، لكنني الآن أحببت التأكُّد منه أكثر من ذلك العنوان، فطمعت في كرم «مريم» أن تسأل أم «مرهون» عن العنوان للتيقن حتى جاءني الرَّد بأن العنوان ما زال هو نفسه.

رافقني عمِّي إلى هناك، قطعنا مسافة طويلة واستغرقنا ثلاث ساعات حتى وصلنا إلى بيت أهل «نهى»، قرع عمِّي الباب لثلاث مرَّات ولا من مجيب، حتى خرج علينا جارهم وأخبرنا بأن «نهى» ووالدتها سافرتا إلى سوريا، إلا أنني توسَّمت بذلك الجار خيرًا عندما طلبت منه إعلامي بعودة «نهى» من سوريا لكي أعاود زيارتها.

وافق الرجل بسعة صدر بعد أن عرف نيتنا، أنا وعمِّي، وتبادلنا أرقام هواتفنا الجوالة، وراقت لي حماسته في التعاون معي..

في طريق العودة إلى منزلي، أخبرني عمِّي بأننا، أقصد أنا وعمِّي، سنعود إلى البيت غانمَين؛ فهذا «الشاب، جارهم، ربما سيكون هو المفتاح الذي يجعلك يا سعيد تعرف ما جرى»، قال عمِّي، وأضاف: «يبدو على شخصية محمود التطفُّل وإلا ما خرج إلينا، لكنني على يقين من أن هذا الشخص سيجعلك تعرف بعض ما خفي علينا من شخصية نهى، زوجة المرحوم، ستعرف وجوهًا أخرى عنها، فربما هي التي جعلت مرهون يندفع لكتابة قصَّة أو رواية».

بدت تفسيرات عمِّي «أبو مريم» مفاتيح لا تخلو من واقعية، لكنه الواقع أكثر تعقيدًا من ذلك، هكذا بدا لي الأمر..

18

انقضت أيام عـدَّة، عمِّي وعمتي عادا إلى الحلة، وأمضينا بعدها نهـارًا كاملًا متعبًا في المقبرة بوادي السـلام لإحيـاء ذكرى أربعينية المرحـوم «مرهـون» برفقة والدته و«مريم» ونسـاء أخريات قريبات والدة المرحوم من مدينة الكوفة.

بـدأ بطن «مريم» يبرز إلى الأمام، وأخذت تشـتهي بعض الطعام غريـب الأنواع، طلبت مني أم «مرهون» العودة بـ«مريم» إلى منزلنا ولـم أكـن أرضى بذلك حتـى لا أتركهـا وحدها في منزلهـا، لكنني حقًّـا بدأت أحتاج إلى «مريم» في منزلنـا، خصوصًا في ظل ظروف عصيبـة يمـرُّ بها الجميـع بعد أن صـار القتل وجز الأعناق بحسـب الهوية والانتماء شائع الحدوث..

اتفقنـا لنذهب، أنـا و«مريم»، وفي نهاية كل أسـبوع، إلى بيت أم «مرهون» حتى تعتاد على فراق ولدها المرحوم، كان ذلك برنامجنا الأسبوعي رغم شعوري بأنني لن أبدي أي التزام به منتصرًا لملازمة «مريم» في بيت أم «مرهون».

19

كنت في مكتبي بالوزارة، لكنها ظهيرة لاهبة لحظة جاءني اتصال من شخص، وقال: «أنا محمود، جار بيت أهل نهى، الجماعة رجعوا من سوريا سوى ابنتهم نهى التي ما زالت في سوريا»، فطلبت لقاءه، رحب بالفكرة، وضربنا موعدًا لذلك.

عندما عزمت على لقاء «محمود»، كان المسلحون المتطرفون قد أحرقوا أمكنة عدَّة في العاصمة مستخدمين السيارات المفخخة وبعض الانتحاريين والعبوات الناسفة، وبدأنا نسمع عن حرب طائفية قذرة يجري الإعداد لها على نار هادئة لتشعل الحرائق بين الناس خلال الفترة القادمة.

عندما وصلت، رأيت «محمود» يجلس في المقهى، كانت الساعة العاشرة والنصف صباحًا، رحَّب بي ورحبت به، طلب مني أن أعرِّفه بنفسي، ولكنني رأيته يعرِّف بشخصه مباشرة، فهو ضابط في الجيش العراقي السابق، تعرَّض إلى إصابة في حرب عام 1991 أفقدته إحدى ساقيه، ومنذ ذلك الحادث تراه يستخدم ساقًا عاجية.

تألَّمت عندما سمعت ما قصَّه عليَّ عن ذلك، قال لي فجأة: «عندما جئت، أنت والشخص الوقور الذي كان برفقتك، لاح لي بأنك جئت إلى بيت أهل نهى تطلب حاجة ملحة منها، أليس كذلك؟»، فأخبرته بالحكاية كاملة، لكنه أخذ يسترسل في كلامه عن نهى قائلًا: «عزيزي سعيد، صديقك المرحوم ليس أول من خطب نهى، وبالتالي تزوجها، هو خطبها وتزوجها في وقت كانت فيه تعاني من أزمة مالية مدمِّرة، صديقك المرحوم هو الخطيب الثالث لها؛ فعندما كانت طالبة جامعية خطبها ضابط في الجيش، واستمرت الخطوبة تسعة أشهر من دون زواج متكامل حتى تُوفي ذاك الضابط، والذي كان يملك دار سكن، وثلاث سيارات، ورصيد في المصرف لا بأس به استطاعت الاستيلاء عليها كلها بالتزوير وخطيبها لم يدخل بها بعدُ عندما توفي، وبدأت المشاكل مع والده وإخوته حتى وصلت الأمور إلى استخدام السلاح والتهديد بالقتل، فصار الاتفاق بين الطرفين على أن تتنازل نهى لوالد خطيبها عن دار السكن، وهي تأخذ إحدى السيارات مع رصيده في المصرف. وبعدها بعام، رأيناها تصعد وتنزل من سيارة شخص آخر شاع الأمر في حينها بأنه خطيبها، واستمرت معه حتى جاء ذلك اليوم الذي ألقت أجهزة الأمن القبض عليهما، وتم اقتيادها إلى مركز الشرطة، فحبيبها خسر 150 ألف دولار أمريكي في سوق السجائر، وتم إخراجها بكفالة، لكنها كانت تبحث عن دينار واحد لتسدده إلى

القضـاء لكي يخلي سـبيلها، حتى جاء صاحبـك المرحوم مرهون، وتقـدَّم لخطبتها، وأتذكر أن والدتي، رحمهـا الله، التقت أم مرهون فـي بيـت أهل نهـى يـوم جـاءت لخطبتها مـن دون أن تعـرف عنها الكثيـر.. كان المرحـوم يأتي إلى زيارة نهى فـي بيت أهلها، ومن ثم أخذا يخرجان معًا، وكانت أمي تريد ولا تريد إخبار والدة المرحوم عن بطـولات نهى الغرامية الزائفة مع الرجـال، وأقصد مع خطيبيها السـابقين، كانت والدتي حـذرة فيما تفعل، وشـعارها الدائم، وفي مثل هـذه الحـالات، دعِ الأمور تمضـي ورب الكون هـو الحارس الأميـن. وبعدما تزوَّجا، ما كانت نهى تغيـب عن بيت والدها كثيرًا، ففـي الأسـبوع الواحد تأتي ثـلاث مـرَّات، وتجلس عندهـم يومي الجمعة والسـبت، وبعد فترة كانت تأتي إلى بيت أهلها تقلها سـيارة خطيبها السـابق الذي كان في السجن وأُطلق سراحه، أذكر مرَّة أنني كنت أجلس عند عتبة بيتي في السـاعة العاشرة ليلًا ورأيتها تنزل من سيارته تلك، وبصراحة فار دمي حينها، وأردت أن أجهز عليها ضربًا وركلًا، فالبنت الشريفة والأصيلة لا تفعل ما تفعله امرأة متزوجة مثل نهى مسـتغلة ثقة زوجها المرحوم بهـا. أخبرت والدتي بالموضوع، وطلبتُ منها أن تخبر أم نهى عن سلوك ابنتها، لكن والدتي امتنعت، وقالت لي: هذه البنت شـرَّانية، دعها ومصيرهـا فهي إلى الزبالة في نهاية الأمر».

صمت «محمود» برهة وكأنه يتأكد من تمام انتباهي لما يقول، ثم أضاف بحماسٍ: «استمر الحال على هذا المنوال لفترةٍ طويلةٍ، وكان المرحوم مرهون يأتي وحيدًا إلى بيت أهلها ويعود وحيدًا أيضًا في أيام كثيرة من دون أن يرى زوجته، ويبدو لي، أقول: يبدو لي، أن والدة نهى إما كانت مرتاحة لتصرفات ابنتها أو غير قادرة على ردعها، وأذكُر أنني رأيت المرحوم لأكثر من مرَّة وهو يأتي ويقف لوحده خلف شجرة يحرق الوقت انتظارًا ربما ليُراقب نهى، وكان يشاهد عودتها مع صديقها إياه في مساءات تقترب لحظة وصولهما من ساعة منع التجوال في العاصمة. وبعدها انقطع المرحوم عن المجيء، ويومها زادت قناعتي بأن الرجل، أي مرهون، ربما تمكَّن من ضبط زوجته بالجرم المشهود خيانة أو ما يُشبه ذلك.. عدا ذلك النهار، الذي جاء فيه مرهون إلى بيت أهلها، وراح يطرق الباب بعنفٍ من دون استجابة، فأخذ يشتمهم بصوتٍ عالٍ، ومن يومها ما جاء الرجل ثانية، لكن نهى مكثت لأيام تلو أخرى في منزل أهلها، وحينها فسَّرت الموضوع بأنَّها إما طُلِّقت أو لم تعد تهتم بأمر زوجها المرحوم، لكنها لم تنقطع عن لقاء حبيبها أو صديقها ذاك، بل وغيره حيث كانت تأتي في أيام أخرى بسيارة يقودها رجل ملتحٍ يتطاير الشرر من وجهه، حتى جئتني أنتَ وعمَّك وأخبرتموني بأن مرهون، زوج نهى، قد تُوفي. وأريد أن أقول لك شيئًا آخر أخي سعيد، وهو أن نهى، كشخصية، وبحسب قول والدتي وشقيقتي عنها، تبحث غالبًا

عن ضحايا، ذلك هو شأنها منذ شبَّت على الدنيا. ويبدو، وسامحني على ما أقوله لك، أن المرحوم مرهون كان ضحية من ضحاياها.. أما إذا سألتني عن الطريقة التي تعرَّف بها إلى هذه النهى فأقول لك: إنني لا أعرف، فالرجل كان مندفعًا لخطبتها والزواج بها، ولا أعرف ما هو السبب، هل هي ظروف البلد وما يمر به من ويلات ومحن وحروب وموت رخيص تجعل الإنسان لا يفكر كثيرًا فيما يختار ويصطفي، أم غير ذلك؟ لا أعرف».

20

عدتُ إلـى منزلي مصدوم الحال، تتوارد إلى ذهني أسـئلة عدة: «فهـل مـن المعقـول أن مرهـون يتـزوج من عاهـرة؟ كيـف ذلك يا مرهون، وكيـف ذلك يا أم مرهون؟ أين حدْس البصيرة، ذلك الذي كنت تحدِّثنا عنه يا مرهون؟»

أخبـرتُ «مريـم» بما سـمعت من «محمـود» فأخذهـا الذهول، لكنها استأنفت قائلة:

- لـم تكن أخلاق «نهـى» طبيعية، فبمجـرَّد امتناعها عن الحمل من «مرهون» كان يكفي لأن يجعله يُطلِّقها، ولكنك تعرف جيدًا صبر «مرهون» على البلوى والمصيبة. ماذا يفعل؟ هل يُخبر والدته بأن زوجتـه تنقـض عهدها مع غيره أم يخبرك أنت؟ وماذا لو سـمعت والدته بالخبر؟ تراها ستذهب إلى الموت من فورها، ومن ثم ماذا لـو عـرف الناس بأن زوجته غارقة في الرذيلـة إلى هذا الحد؟ هل تعتقد يا «سعيد» أنهم سيرحمونه من كلامهم السيئ وهو شخصية مشهورة تعيش في زمن أغبر؟

- تلك هي رائحة الذكورة العفنة إذن!

نطقتُ بذلك، وأنا أمضي شطر حجرة نومي حزينًا يأسر قلبي لظى أوجاع نافر..

21

«أيُّ عاصفة رعناء كانت تدور في داخلك يا مرهون؟»

سألت بصوتٍ مهموسٍ وأنا أجلس إلى زاوية في حديقتي التي لا أرى خضرتها سوى ظلال خافتة يسَّاقط منها الألم بعد الذي سمعته من الأخ «محمود» عن تصرفات «نهى»..

أطبق الهمُّ على كينونتي، حتى «مريم» خيَّمت عليها موجة حزن ينثرها صمت الحيرة..

كنا ننحني للخيبة التي تربعت أعلى سلَّم اللحظة شامتة بخبث..

ذات مساء، وفي «مقهى الشاهبندر»، كنت قد رأيت «مرهون» صامتًا بذهولٍ، ربما كان يومها تحت سطوة الشعور بالهزيمة جرَّاء ما تفعله به زوجته الثانية «نهى»، ربما كان قد عرف للتوِّ عن خياناتها له، أو ربما أدرك فداحة مأساته، وهول أنْ تكون لكَ زوجة تتكرَّى تحت جسد غيرك من الرجال في سرير فاحش، أو حتى في مكتب عمل، أو على أريكة أو كنبة قذرة، أو حتى على بلاط خلية عفنة

تفوح منها رائحة الرذيلة في وقت لا أحد منَّا، في هذا الظرف العصيب، يضمن وجود روحه في بدنه لغدٍ آخر، بل لساعةٍ، وحتى لدقيقةٍ واحدةٍ، فالموت الزموع أصبح سيد الخراب في وطن الرَّدى الأكبر.

خالجني الشعور بالحاجة إلى «مريم»، غادرتُ الحديقة قاصدًا صومعة نومنا، كانت «مريوم» غافية ولم تصل بعدُ موسيقى الصباح إلى مسامعها.. جلستُ على طرف سريرنا، أخذت أترسَّم مُتأملًا بهاء وجهها، وصفو رموشها البريئة، وأناقة أنفها الناعمة، ورقة فمها العاطر بأحلامها.

وضعت رأسي على وسادتي، صارت أنفاسها الدافئة تصل فمي وأنفي، رائقة بل مثيرة خصلة شعرها المتجانفة على وسادتها كأنَّها الليل وقد أرخى سدوله على بياض الوسادة.

أردتُ إيقاظها، لكنني تركتها تأخذ قسطها من الراحة، ووجدت من الأفضل لي أن أدخل المطبخ لتنظيف ما تبقَّى من الصحون المغبرة، وإعداد فطوري وفطورها ريثما تستيقظ سيدتي وأميرتي «مريم الشبلي».

انتهيت مما شئت، عدتُ ثانية إلى الحديقة، غمرني الحنين إلى «مريم»، ربما الحاجة إليها، ساورني إحساس بأن ذكورتي تتبخر، لا بُدَّ لأحدنا، نحن الرجال، أن يحافظ على ذكورته باستدامة حثيثة

لكيلا يفقد ثقة امرأته به، الويل لذلك الذي لا يُديم ذكورته ويصدُّ عنها نضوبها المخزي.

عدتُ إلى حجرة النوم لإيقاظها، لكن «مريم» سبقتني إلى ذلك، كانت ممدَّدة على سريرنا، اقتربتُ منها، طبعتُ قبلة على جبينها الدفيء، ضمَّتني إلى صدرها الفائض شوقًا، طبعت قبلة على عيني اليمنى فاليسرى، وأعادت رأسي إلى صدرها مرَّة أخرى، كانت شغوفًا، وبدت كَمَنْ تشعر بحنيني الأسطوري إليها، أنهضتها عن السرير كأميرة، ولما نضت ملابس نومها عنها، بدا جسدها مَلاكًا وهي تنظر عبر المرآة إلى بطنها، تتحسَّس بأصابعها العسلية بروز بطنها الذي ما زال مشدودًا وعصي الهطول، وعبر المرآة، ابتسمت لي عندما أحسَّت بعيني تراقبانها، علَّقت بضع ملابس داخلية ناعمة على رسغها، وسارت إلى الحمَّام، وفي طريقها سألتني بصوتٍ خافتٍ يدلُّ على حياءٍ غريبٍ:

- هل أعمل لك فطورك؟

- لا، فعلتُ ذلك قبلكِ، وفطوركِ تحت الطلب..

تاليًا، جمعتنا خضرة الحديقة في صباحنا الحالم، سألتني «مريم» عن الخطوة التالية بشأن مخطوط رواية مرهون:

- ماذا ستفعل؟

وبالمقابل سألتها أن تعطيني الإجابة، فقلت لها:

- كلام «محمود» أغلق نوافذ خيالي..

لكن «مريم»، وهي ترشف الشاي، أخذت تدلق كلامها بسلاسة المرأة الواثقة:

- لا بُدَّ لكَ يا «سعيد» من أن تتخلَّص من الصدمة؛ لأن «نُهى» ليست المرأة الأولى التي تخون زوجها، وليست الأخيرة أيضًا، الحروب التي مرَّت علينا نخرت أخلاق الناس، ضربتها في العمق، هشَّمت صميمها، حطَّمت المعقول فينا، وبالتالي تورُّط «مرهون» في «نهى» جاء عن غفلةٍ، كان عليه أن يُدقِّق أكثر، ولو عمل ذلك لكان سيستنتج من فوره أن امرأة خاضت تجارب دنيئة مع رجال آخرين قبله لا تُجدي نفعًا؛ لأنَّها ستُكرِّر الدناءة نفسها معه.. لقد اعتادت «نهى» الضحك على رجال آخرين قبله، خرجت عن طوع نفسها، وعن معقول ذاتها، غرس الخراب أنيابه في كيانها، ربما تكون هي ضحية، ولا أؤمن أبدًا بأن تكون «نهى» ملعونة بالفطرة، فالواقع المر الذي نعيشه هو الذي صار اللعنة التي تتحكم في سلوكها وأمثالها.. يا «سعيد»، يجب ألَّا تبحث عن أسباب تمرُّد «نهى»، ابحث عن الفصلين الضائعين من فصول الرواية فقط، ودع عنك بقية الأمور، فقد رحل «مرهون»، وما تبقَّى منه روايته التي تهتم بها أنت وفاءً له، وينتظرها الناشر والقراء من بعدك.

- هل تُشجعينني على الذهاب إليها حينما تعود من سوريا؟

- نعم، اذهب، ولماذا تنتظر حتى تعود؟ اذهب الآن إلى أهلها، وتكلَّم معهم حول بقية أغراض «مرهون».. الأثاث، والملابس، والمكتبة، وبقية الأشياء بوصفك رسولًا من طرف والدة «مرهون»، وبالمناسبة هذا ليس رأيي أنا فقط، إنما هو رأي أم «مرهون» أيضًا، هي قالت لي ذلك، بل وطلبت مني إيصال رسالتها إليك، وأنت تعرف أن والدة المرحوم لا أحد لها سوانا بعد رحيل آخر أولادها.

- هل تأتين معي؟

- ولمَ لا! أذهبُ معك، سواء للقاء أهل «نهى» أو للقائها هي بذاتها، وعليك أن تتوقَّع منهم أو منها السوء والإهانة وتجريح المشاعر، ولكننا يجب أن نضع كل ذلك خلفنا بغية الحصول على ما نريد، أعني فصلي الرواية المفقودين لا أكثر ولا أقل.

- فكرة جميلة، وماذا عنكِ؟

- ماذا تقصد؟

- عن ولي عهدي الذي في رحمك، «مرهون» الصغير؟

ابتسمت، وقالت بغنجٍ مبهجٍ وهي تضع كفها اليمنى بحنوٍّ على بطنها بأصابع متباعدة:

- «مرهون» الصغير ينمو ببطء، ولكن يدعوك لأن تشتري له سريرًا، وملابس، وأشياء أخرى، وأنتَ والده الذي ينتظر ولي عهده..

- الآن؟

- كلا، الآن عليك أن تذهب إلى السوق؛ فالزيت نفد، وموعد توزيع الحصة التموينية بعيد الوقت، والشاي والسكر نفدا، أمس اشتهيت مرقة الطرشانة مطبوخة بعظم خروف، واشتهيت تمر هندي، وبالمناسبة، عبوة غاز الطبَّاخ تكاد تنفد..

- الأحسن لنا أن نذهب إلى السوق، ولكِ ما تشتهين..

- هذا أفضل، فربما أشتهي شيئًا ما عندما أراه، أنا حامل، والحامل تتوحَّم، و..

- هيا بنا أيتها المرأة الحامل قبل أن تتوحَّمي وتطلبي مني لسان الغزال!

22

أخبرتُ «محمود» بالفكرة؛ بأن نذهب، أنا وزوجتي، إلى بيت أهل «نهى»، قال لي: «نهى لم تأتِ بعد من السفر». لكنه يعتقد أنها ستعود يوم الخميس القادم، واقترح أن نذهب إلى لقائها يوم الجمعة.

رحَّبت بالفكرة، وأخبرت «مريم» بالأمر، وكذلك أخبرت أم «مرهون»، بل واقترحتُ عليها المجيء معنا، لكنها رفضت لكي لا تواجه أزمة جديدة مع «نهى»، وهي التي لاقت منها سيلًا منقطع النظير من الإهانات والإذلال..

23

في طريقنا إلى بيت أهل «نهى»، أنا و«مريم»، رنَّ جرس هاتفي الجوال، لم يكن الرقم معروفًا لي شخصه، ومع ذلك، أجبت، كانت صحافية، قدَّمت نفسها باسم «وفاء السامي»، وقالت إنها تعمل في صحيفة أسبوعية تصدر بالعاصمة، وتريد إجراء حوار عن المرحوم «مرهون الشاكر»، أخبرتها بأنني أقود سيارتي الآن، ولا أستطيع الاستمرار في المكالمة معها، ووعدتها بالاتصال بها ثانية حول الموضوع.

كانت «مريم» قد سمعت ما جرى، وسألتني:

- هل هناك حق عام للمبدع أو للكاتب في أعماله؟

- ماذا تقصدين بالحق العام؟

- أنتَ تعرف، أننا غالبًا ما نسمع أن الأسرة الفلانية تنازلت عن حقها الخاص في قضية ما، أما الحق العام فهو من شأن الدولة.

- نعم، هذا صحيح، ولكن لا أدري فيما إذا كان هذا ينطبق على موضوع «مرهون» أم لا؟ دعينا نذهب، ونَرَ ما يمكن أن نفعله هناك..

لمَّا وصلنا إلى عتبة بيت أم «نهى»، التفتُّ يمينًا فرأيت «محمود» يرسل لي تحية بيده من بعيد، تراني فهمته، إنه يريد أن يكون قريبًا وبعيدًا في آنٍ واحدٍ عن زيارتنا.

طرقنا الباب أربع مرات، وكانت الخامسة بكف «مريم»، خرجت علينا امرأة هرمة:

- نعم، ماذا تريدان؟

- السلام عليكم حجيَّة، قالت «مريم».

- عليكم السلام، تفضلا، ماذا تريدان؟

- نحن من طرف أم المرحوم «مرهون»، جئنا للكلام معك ومع «نهى». أوضحت «مريم».

- أي موضوع تتكلَّمان فيه؟

- ممكن نجلس عندكم للحديث عن هذا الموضوع؟ سألت «مريم».

- ما عندي وقت.. تعبانة.. عندي صداع.. أريد أن أنام..

- نصف ساعة فقط. طلبت «مريم» برجاء..

دخلنا إلى الصالة التي بدت كئيبة، بل وقذرة، الأثاث قديم، ويكاد الغبار يفرش حضوره على كل شيء، توارت الأم لعشرين

دقيقة حتى ظهرت «نهى»، بدا شعرها أشقر اللون. كان استقبالها لنا ثقيل الطيَّة، قالت:

- تفضَّلا، ماذا تريدان؟

- أولًا البقاء لله، كنَّا نأمل حضورك في العزاء. أوضحت «مريم».

- لا يوجد داعٍ لمثل هذا الكلام، ما الذي تريدانه بالضبط؟

- بينما كان المرحوم راقدًا في المستشفى، أخبرني بأنه سلَّمكِ جزءًا من مخطوط روايته الأخيرة «ينحني الصابر للوجع»..

قاطعتني بتبرُّمٍ:

- أنا أقرأ لهذا المجنون؟ ماذا أقرأ؟ شخابيط، قصص تافهة، وحكايات يفضح بها أعراض الناس؟ ماذا أقرأ؟ ومن ثَمَّ، ما شأنك أنت وهذا الموضوع، سواء أعطاني أوراقه أم لا، فتلك علاقة بيني وبينه، فلماذا تتدخلان في موضوع غيركما؟

- أنا أحترم رأيكِ، وأعتز به، ولكن الناشر أرسل رسالة طلب فيها النص الكامل للرواية لكي ينشرها، وأنتِ تعرفين أن الرواية التي كتبها المرحوم هي الأخيرة له، وهذا موضوع في غاية الأهمية لتراثه الأدبي والإبداعي.

- «مرهون» أو المرحوم كما تُسمِّيه، لم يُعطني أي شيءٍ، كنتُ فقط أريد التيقُّن من أنه سيموت حتى أتحرَّر منه.

- حـرام هـذا الـكلام وأنت أرملتـه.. طيـب، ألا تريدين ملابسـك وأغراضك وغرفة نومِك، هي حقكِ، متى تأتين لأخذها؟ سـألت «مريم».

- لا أريـد أي شـيءٍ، وبالمناسـبة، أنـا ذهبـت إلـى دائـرة الأحـوال الشـخصية، وسـجَّلت «مرهون» كمُتـوفٍّ، ولا يوجـد بيني وبين والدتـه أي صلـة أو علاقـة بعد موتـه، أنا الآن حـرة، وأثاث غرفة النوم وملابسـي سأرسـل لأمه مَنْ يحرقها أمـام ناظريها وأمامكم أيضًا، إذا رغبتم في ذلك.

- يـا «نهـى»، هل أنتِ متأكِّدة مـن أنكِ لم تأخـذي بعضًا من أوراق الرواية؟ سألتها أنا.

- قلـتُ لـك، لـم أحمـل معـي أي أوراق فـي أثنـاء تلـك الزيـارة المشـؤومة، كان «مرهون» في حالـة مزرية، وخرجتُ من حجرته خالية الوفاض إلا من خيبتي بهذا الزوج المريض الذي نكأ حياتي ودمَّرها كلها.

- شـكرًا لـكِ «نهـى»، والبقـاء للـه، ولكـن تذكَّـري أن المرحـوم «مرهون» ليس زوجك فقط، بل هو ابن الناس والمجتمع والتاريخ والمستقبل. قالت «مريم».

- هـذا تهديـد ولا أقبل بـه، تفضَّلا بالخروج، هيا، وهذه نسـخة من شـهادة وفاة صاحبكما الروائي المبدع، أرسلوها لوالدته، وانتهى الموضوع.

قالت «نهى» ذلك وهي تتوارى مسرعة متوترة عن الصالة..

أخذنا بعضنا، أنا و«مريم»، ومضينا خارجين.. خطونا معًا نحو بيت «محمود» الذي كان واقفًا عند بابه، أخبرته بأنني سأتصل به لاحقًا، وتوجَّهنا إلى بيت أم «مرهون» لشرح ما جرى.

في الطريق، أخذنا نقلِّب كل الكلام الذي سمعناه من «نهى»، وتأكَّد لنا أنَّها هي التي سرقت الفصلين المفقودين من فصول الرواية، وربما كانت عبارتها: «يفضح بها أعراض الناس» خير دليل على ذلك، فالمقصود أنه هتك عرضها كما تظن أو ربما تعتقد!

قالت «مريم»:

- ليس لنا سوى القضاء والمحاكم والقانون، قلت لكَ هناك حق عام، الدولة معنية بإعادته إلى صاحبه الشرعي، عليك أن تبدأ حملة تفضح أكاذيب ناكرة الجميل هذه.

- هذا ضروري، سأتصل برئيس الاتحاد العام للأدباء والكُتَّاب، سأخبره عن الموضوع بكل تفاصيله حتى يتحوَّل إلى قضية تأخذ طريقها إلى القضاء بمساعدة محامي الأدباء «عمَّار القاضي»، والقضاء سيُجبرها على الاعتراف بجرمها وإعادة الفصلين المسروقين.

اتصلتُ بالصحافية «وفاء السامي»، دعوتها للمجيء إلى منزلنا لكي نجري الحوار حول «مرهون الشاكر». رحَّبت «مريم» من جهتها بفكرة مجيء الصحافية إلى منزلنا، فهي غالبًا ما تحب أن تسمع ما تقوله النساء عني، هذه هي براجماتية «مريم» الناعمة أو كما تسميها هي بـ (Soft Pragmatic)، ولا أعرف كيف تحفظ هذه المفردات؛ ربما تدخل مكتبتي المنزلية خلسة، وتقرأ كتبي لكي تنافسني في قول الكلام، أو ربما لها قراءاتها الخاصَّة بها؛ فهذه الـ «مريم» دودة كتب وقراءة ونبش بين السطور مُذ كانت طالبة جامعية..

24

مضيتُ في قراءة الشِّعر حتى لاحت خيوط الصباح على حديقة منزلنا، كنتُ أبحثُ عن آلام «مرهون» في قصائد شعراء كنَّا قد قرأناها معًا، وقفتُ عند قصيدة «دوف تتكلَّم»، للشاعر «إيف بونفوا»، التي قال فيها:

«كنتُ أصرخُ،

كنتُ بوجهي أُجابه الرياح..

لماذا الحقد؟

لماذا البكاء؟»

هكذا كنتَ يا «مرهون»، تجابه الرياح الهائجة بالموت من حولك، تصرخ بها وحيدًا، تصرخ بوجه تلك التي سمحت لغيركَ أن يدسَّ أصابعه في لحمها الذي هو لك دون غيرك.

كنتَ يا مرهون طيرًا «وحيد الجناح»، كما قال الشاعر «جورج سفيريس».

وعدتُ إلى «بونفوا» مرَّة أخرى لأقرأ مقطعًا من قصيدته «حجر»، التي صدح فيها:

«وقومي بانحناءةٍ لأجلنا،

نحن الذين لم يعد لنا نهار».

هل تذكُر يا «مرهون»، وبعد رحيل زوجتك الأولى الشهيدة «فاطمة»، عندما كنتَ تقرأ لي هذا المقطع من قصيدة «بونفوا»؟

تراك كنتَ تبحث عن أنثى والنهار المضيء ولَّى برحيله عنك، وغادرك إلى الأبد..

ووقفتُ أيضًا عند مقطعٍ من قصيدة لـ «جورج بطاي» أو «جورج بتاي»، ذاك المقطع الذي قرأته لي أنتَ بنفسك يومًا:

«العالم مُشرفٌ على الموت..

تطيرُ الطيور بعيونٍ مفقوءةٍ..»

منحتك «فاطمة»، زوجتك الأولى، عذوبة غير دائمة، أما «نهى»، زوجتك الثانية، فقد منحتك العذاب الأبدي، لكنه الموت وحده أنقذكَ من كل عذاباتك المُبتلى بها.

لم يعد لديك نهار يا «مرهون»..

ها أنتَ طرت بعينين مُهانتين عليلتين مفقوءتين في ظلامٍ دامسٍ إلى تلك التي فقأت لكَ قلبك، وأوقفتْ نبضه للأبد، كانت «نهى» قدرًا داجيًا في حياتك يا «مرهون» مثل سماء سوداء تقطر دمًا ملوثًا بالبشاعة، تلك التي تحبس وطننا المجروح، فلماذا جرَّبت أن تطير في تلك المتاهة العاتمة بجناحٍ واحدٍ وأنت مفقوء العينين؟

25

مـرَّت أيـام، كانت «مريـم» تسـتعد لاسـتقبال الصحافيـة «وفاء السـامي» فـي منزلنـا، وعندما جاءت لـم أكُ أعرف بأيَّـة صفة أكون عليهـا حتـى تُجـري الحـوار الصحافي معـي عن الراحـل «مرهون الشاكر».

ربما لكوني أحد أصدقاء المرحوم المُقرَّبين، أو ربما تعرف هذه الصحافية أنني أعيش راهنًا أزمة البحث عن الفصلين المفقودين من فصـول روايته «ينحني الصابر للوجـع».. كلا.. «لا يمكن أن تعرف ذلك؛ لأنني لم أخبر أحدًا سوى المؤتمنين من أصدقائنا». قلت.

فـي حياتـي، لـم أكُ كاتبًا، ولـم أكتب الشـعر، ولا أنـا الروائي أو القاص أو الفنان المسرحي، أنا مجرَّد قارئ، أنا صديق الأدباء فقط، ولكـن، ومهما يكن حالـي، فأنا صديق المرحوم «مرهون الشـاكر» الوحيد الذي يعرف عنه ما لا يعرفه غيري.

جاءت «وفاء السامي» إلى منزلنا، قدَّمتُ لها زوجتي.. وأخبرتها بأننا تخرجنا معًا في كلية الآداب بعد أن درسنا اللغة العربية فيها. وأخذت «وفاء» تتحدَّث عن نفسها في الدراسة والعمل..

جلسنا في الحديقة..

«وفاء» شابة جميلة، ترتدي حجابًا يزيدها جمالًا، لكنَّني كنتُ حذرًا في نظراتي التي قد تفلت من عينيَّ صوبها؛ لأن «مريم» ستكون لي بالمرصاد رغم أنَّها آية في جمالها، بل تفوق جمال الصحافية بهاءً وروعة، ولكنَّني أحذر دائمًا نصال الغيرة بين النساء..

تحدَّثت «مريم» مع «وفاء» عن حياة النساء، أخبرتها بأنها حامل بعد طول غياب، حرقنَ معًا حوالي نصف ساعة في أحاديث مشتركة، ومن ثم انتقلنا إلى الحديث عن «مرهون»..

أخبرتني «وفاء» بأنها جاءت إليَّ بوصفي أقرب أصدقاء المرحوم إلى حياته حتى يوم رحيله. سألتني كثيرًا عن حياة «مرهون» الثقافية، عن بداياته، ودراسته، عن كتاباته الأولى، عن رواياته ومجموعاته القصصية، وكذلك عن حياته الشخصية، عن زوجتيه: الأولى والثانية، عن والدته، عن أشقائه الشهداء، عن علاقاته المتشعبة مع الوسط الثقافي، عن موقفه من الحرب والاحتلال البغيض،

والإرهـاب الأعمى، والطائفية السـوداء، والقتل المباح في شـوارع مدننا، ومن ثم انتقلت مباشرة إلى روايته الأخيرة.

- شـاع في الوسط الثقافي أن «مرهون الشـاكر» كان قد تحدَّث عن رواية جديدة يكتبها وسـترى النور قريبًا، مـا الذي تعرفه عن تلك الرواية؟

- كان «مرهـون» قـد أخبرني بها، وقـال لي: إنها الروايـة التي كنتُ أنتظرها، ولكنَّنا، وبعد انتهاء العزاء، اكتشفنا أن فصلين من فصول الرواية الخمسة، كانا قد سُرقا قبل وفاته في المستشفى.

- إلى ماذا وصلتَ في بحثك عن الفصلين المسروقين؟

- لقد عرفت الجهة التي سرقتهما.

- هل التقيت بها؟

- نعـم، وأعلمتها بأهمية الفصلين بالنسـبة لروايةٍ مؤلَّفةٍ من خمسـة فصول، لكن تلك الجهة أنكرت.

- هل لديك شهود على سرقة الجهة التي تذكرها؟

- نعم، هناك شاهد واحد.

- هل لك أن تخبرنا عن تلك الجهة، وعن الشـاهد، ما اسـمه، وأين يعمل؟

- كلا، أنا أفضِّل التكتم عليهما الآن لحين تبنِّي مؤسسة معنية بشؤون الأدباء والمبدعين لهذه القضية دفاعًا عن الضحية وإبداعها.

- ماذا تقصد بالمؤسسة المعنية بشؤون الأدباء؟

- الاتحاد العام للأدباء والكتَّاب، ووزارة الثقافة على سبيل المثال؛ إذ لا بُدَّ لمثل هذه القضايا من أن تتحوَّل إلى قضايا رأي عام، فكل عمل إبداعي هو ملك للناس جميعًا، للوطن، للأمة، للتاريخ، وليس من المعقول أن تتم عملية سرقة ثلث رواية تقريبًا لأسباب أنا أجهلها بالنسبة لحالة «مرهون».

- هل يمكن إشهار عنوان الرواية التي كتبها «مرهون الشاكر» وهي الأخيرة له كما أخبرتني؟

- لا بأس في ذلك، عنوانها هو «ينحني الصابر للوجع».

- بحسب قراءتك، ما الذي يريد قوله المؤلِّف في هذه الرواية؟

- لقد قرأت الفصل الأول، وعزفت عن القراءة وذلك بسبب غياب الفصلين الثاني والخامس.. هي رواية عن الإنسان الذي تعصف به الحياة بكل لا معقولها البذيء، رواية المثقف الذي يعيش تحت تأثير الدمار القميء الذي يأكل حياتنا حتى يأتي عليها حرقًا شاملًا.. وأكتفي بذلك..

بعد الانتهاء من الحوار، دعت «مريم» ضيفتها «وفاء» إلى وليمة الغداء، استأذنتهما وتوجَّهت إلى الصالة، ومن هناك سمعت «وفاء» تقول لـ «مريم»: «زوجكِ رجل أصيل ووفي لأصدقائه، فضلًا عن كونه شابًّا وسيم الروح، شعرتُ أنه منسجم معك».

ابتسمت «مريم» بثغرٍ غانجٍ، وقالت لها: «هل أخطبه لكِ؟»

ضحكتا معًا، شعرتُ أن «مريم» كانت تنتظر مثل هذا الكلام الذي يصدر عن أيِّ امرأة تصف شخصيتي أمامها بمثل ما وصفت «وفاء السامي».

26

مضت سبعة أيام كانت فيها أم «مرهون» ضيفة بيتنا، أخرجناها من رتابة حياتها في بيتها الحزين، أجلسناها كالسيدة الأم بيننا، وأخذت تُظهر ارتياحها مما فعلنا.. وكانت برفقة «مريم» تهيئ سرير وفراش المولود القادم، وتخيط الملابس غير التي اشترياها من السوق، حتى طلبت منَّا عودتها إلى منزلها، لكنني شعرت أن «مريم» كانت بحاجة إليها، ولذلك اقترحت الذهاب معها إلى منزلها لأسبوع فوافقت بمحبة؛ لأبقى، مرَّة أخرى، في داري من دون أنثاي.

27

في مطلع الأسبوع التالي، اتصل بي «حسن المزهون»:

- «سعيد»، يا رجل، هل رأيت حوارك في الجريدة، ما الذي فعلته؟

- ماذا فعلت؟

- لقد أحرقت الدنيا، دعني أقرأ لك العنوان الرئيس في الصفحة الأولى: «وهو في غيبوبة الموت.. روائي تُسرق فصول روايته».

- يا رجل! في الصفحة الأولى؟!

- نعم، دعني أقرأ لك العنوان الفرعي: «صديق للروائي الفقيد: عرفنا السارق، والشاهد حيٌّ يُرزق، والاتحاد العام للأدباء يجب أن يتدخَّل».

- وبرأيك، هل سيتدخَّل؟

- نعم يا صديقي فهذا واجبهم، اتصل بي رئيس الاتحاد العام للأدباء والكتاب وطلب مني رقم موبايلك.

- يا «حسن»، يجب أن نجعل من الموضوع قضية رأي عام، يجب أن تكتب أنتَ وبقية الأصدقاء من الأدباء والروائيين، وجمعية القصة أيضًا، مقالات حول الموضوع.

- سأكتب، وسيكتب كذلك صاحب رواية «الراووق»، وصاحب رواية «موت الأب»، وصاحب المجموعة القصصية «أصوات عالية»، وكذلك صاحب رواية «كراسة كانون»، وأيضًا الشاعر صاحب ديوان «صعاليك بغداد»، صديق «مرهون»، والشاعر صاحب ديوان «السنوات اللقيطة»، الذي يعيش في لندن، وصاحب رواية «اليوسفيون» التي صدرت مؤخرًا في بغداد، وكذلك صديقك من الكوفة الذي أصدر كتاب «الحضور والتمركز»، وكتاب «محنة الهوية»، وأرسلتُ رسالة قصيرة إلى صديقنا في سدني صاحب كتاب «البنى الأسلوبية»، وإلى نقيب الصحافيين الذي قال إنه سيصدر بيانًا في هذا الشأن، وغدًا سأكتب رسالة إلى منظمة حقوق الإنسان، وعليك يا «سعيد» أن تطلب من زوجتك «مريم» الاتصال بعددٍ من الكاتبات والروائيات والصحافيات من صديقاتها؛ لحشد الرأي، وشد عزم رئيس الاتحاد العام للأدباء والكتاب، وكذلك محامي الأدباء.

- نعم يا «حسن»، سأفعل كل ذلك، سأنتظر مكالمة رئيس الاتحاد.

ودّعته، قائلًا له:

- أشكر لكَ اهتمامك يا صديقنا الوفي، تحياتي لك.

وبينما كنت أضع هاتفي الخلوي على أريكة الصالة وجدته يرنُّ ثانية، كان رئيس اتحاد الأدباء، تحدَّثنا عن الموضوع، وطلب مني الحضور إلى مكتبه في مقر الاتحاد قرب ساحة الأندلس للتداول في الأمر مع محامي اتحاد الأدباء والكتاب «عمَّار القاضي».

في اليوم التالي، كانت المعلومات متاحة أمام رئيس الاتحاد والمحامي معًا، زوَّدتهما باسمها الكامل: «نهى ردَّام مصطفى»، واسم الشاهد «خليل عبد الله نايف» الشهير بـ «أبو نادية»، وكذلك اسم الطبيب «أحمد عز الدين الجبوري»، وعنوان مسكن أهل «نهى»، وبمعلومات عن يوم الوفاة، واسم أم «مرهون» الكامل، على أن الدعوة القضائية موجَّهة من اتحاد الأدباء ضد «نهى ردام مصطفى»، أرملة الكاتب الراحل «مرهون الشاكر».

اتصلت «مريم»، قالت لي: «هل سمعت ما جاء في المذياع؟»

أخبرتها بالنفي، وسألتها: «ماذا هناك؟»، فقالت:

- إن برنامج «مبدعون في أسبوع» تطرَّق إلى ما نشرته صحيفة «المدينة»، التي تعمل «وفاء السامي» فيها، ونقلوا عنك ما قلته في حوارها معك بشأن فصول رواية «مرهون»، حتى إن أم «مرهون»

سمعت البرنامج، وفرحت لكلامك الذي أوردته المذيعة نقلًا عن الجريدة، وكذلك استضافت المذيعة في البرنامج ثلاثة أدباء أحدهم روائي، واتصلت هاتفيًّا بنائب رئيس اتحاد الأدباء للحديث عن الموضوع.. وقالت المذيعة إن الحلقات القادمة من برنامجها ستواصل تسليط الأضواء على قضية رواية «مرهون الشاكر» المعنونة بـ «ينحني الصابر للوجع». وذكرت أنكَ سوف تكون ضيفها، أقصد ضيف برنامجها في الحلقات القادمة.

كانت تتحدث بحماسٍ ملحوظٍ، ثم صمتت ربما لالتقاط أنفاسها، قبل أن تضيف:

- يا «سعيد» يبدو أن الموضوع أخذ مساره الطبيعي لدى الرأي العام.

من جانبي، أخبرت «مريم» عن لقائي برئيس اتحاد الأدباء والمحامي، وأخبرتها أيضًا أن وزير الثقافة طلبني للقائه، واتصل بي «حسن المزهون» أيضًا، وأخبرني عن جهوده في هذا المجال.

في المكالمة ذاتها، أخبرتني «مريم» أيضًا بأن بطنها للتوِّ بدأ يبرز إلى الأمام، وأن الدوار بدأ رحلته معها، وصارت تشتهي أكلات منسية، فأخبرتها بأنني سأكون في المساء عندها.

28

بينمـا كانت قضية فقـدان فصلين من فصول الروايـة تتفاعل في الأوسـاط الصحافيـة والثقافيـة والإبداعيـة المحليـة، وجـدتُ من المناسب قراءة الفصل الثالث من فصولها.

هـذا مـا فعلتـه بعـد أن وضعـت فصـول الروايـة في مـكان آمن لا يعرف أي أحد به سوى «مريم».

ليس هذا فقط، بل أخذت الفصول المتوفرة بحوزتي إلى صديقٍ أثق فيه، وطلبت منه استنساخها كإجراءٍ احتياطي..

وعندمـا عـدت إلـى المنـزل، أخـذت بقـراءة الفصـل الثالـث، واستوقفني الملفوظ السَّردي الآتي:

«كلَّما سـعيت إلى أن يكون بيننا كائن صغير يُشـبهنا معًا أو حتى يُشبه سُهى، وجدتُ نفسـي في مغامرة حمقاء، كنت أستجمع قواي النفسـية والروحية والبيولوجية والجنسية لأيام عدَّة لكي أدلق حلمي الساخن في فجوة الخلاص اللاهبة لدى فَجْرِي الثاني.. كانت سُهى تلفـظ حلمي الدافئ ذاك حتـى لا ينمو روحًا أخرى، كانت تُنفِّسـخه

داخل رحمها حتى عثرت يومًا في حقيبتها على حبوب منع الحمل عندما كانت مُنهمكة في مكالمة هاتفية طويلة مع مَنْ تدَّعي أنَّها صديقتها.. كنتُ أفكِّر يومها بأن وجود طفلٍ صغيرٍ بيننا قد يطرد رائحة الذكورة العفنة من جسد سُهى الخائن ويعيده بعد توبته إلى عالم البراءة والعفَّة، كنت أعتقد أن إطعام الأم لطفلها الرضيع يُنسيها التفكير في أي خيانة محتملة، لكن فَجري الثاني ذاك لا يُريد أي كائن ملائكي بيننا، وفي الوقت نفسه، لا يُريد هجران عفونة الخيانة.. كان عليَّ الانحناء أكثر لهذا الجنون الموجع».

اللعنة عليكِ يا «نهى»، كان الرجل يريد طفلاً منكِ، وكان على استعداد لنسيان كل خياناتك وقذاراتك مع السافل القمي الذي كان يعبث بلحمك..

أخذتُ أقرأ ناهمًا السطور تلو غيرها في صفحات ما تبقَّى من هذا الفصل حتى استوقفتني فقرة سردية، جاء فيها:

«يا سُهى، أنتِ تعرفين أن أشقائي الثلاثة رحلوا، ماتوا، ضاعوا في متاهة الوطن المُعذَّب، ولم يبقَ من نسلنا سواي، وأنتِ تعرفين أنَّ أمنية أمي هي أن يكون لها حفيدها الذي تنتظره، يجب أن تراعي هذه الأمور، أريدُ منكِ طفلاً.. طفلاً يا سُهى.

- أخبرتك سابقًا بأنني لا أنجب أطفالاً، رحمي خانني، أحشائي عوراء، أنا امرأة من صنف العواقر، ألا تفهم؟

- كلا أنتِ لستِ عاقرًا؛ لقد سألتُ طبيبتك، وقالت لي: إنَّك لستِ عاقرًا، ولا أنا لديَّ أي عقم أو مرض في هذا الشأن.

- هذا يعني أنك تتجسَّس على شؤوني يا نذل، يا خسيس، لماذا لم تحبل زوجتك الأولى بطفلٍ، هل كانت من العواقر أيضًا، أم أن رجولتك كانت في إجازة؟

- اخرسي يا وضيعة، المرحومة كانت أميرتكِ، كانت التاج الطاهر على رأسكِ، لا تتحدَّثي عنها بهذه الطريقة الفجة، أنا بنفسي اكتشفت أنك تتعاطين حبوب منع الحمل، لقد رأيتها في حقيبتك، ماذا تفعلين بها إن لم تستعمليها معي؟

- هذا يعني أنك تنبش في حقيبتي، وتعبث في أشيائي؟

- نعم، هذا حقي، اذهبي إلى الحمَّام، اغسلي عاركِ يا وقحة؛ فرائحة قوَّادكِ القذرة ما زالت عالقة بلحمكِ الرجس، على نهديكِ الملسوعَين بأنياب الفجار، على جسدكِ المشوه ببقع عضٍّ وقرصٍ حمراء وزرقاء..

- أنا لست عاهرة يا بن العاهرة، أنا أشرف منك، وأشرف من عشيرتك، القوَّاد إياه سيقتلك، كلا، أنا سأقتلك بكفي، سأقطع عنقك، وأرمي رأسك في قمامة أمك، وإذا كنتَ تريد مني طفلًا يُشبهك، من دمك الفاسد، قلتُ لكَ: يجب أن تسجِّل ملكيَّة بيت أمك باسمي، وعندها سيكون لك طفل مني يحفظ سلالتك عبر

التاريخ، أما حبوب منع الحمل فهي ليست لك، إنَّما لعُهري؛ لذلك الذي تسميه قوادي عندما...

- اخرسي يا ساقطة.. يا منحطَّة...».

هكذا إذن، كانت ملحمة لا هوادة فيها.. هذا اعتراف صريح بأن «سُهى» في الرواية كانت عاهرة، بل إنها تُشهر ذلك أمام زوجها وجهًا لوجه. وبات واضحًا أيضًا أنها تريد منه نقل ملكية بيت والدته إلى ملكيتها، لكن «مرهون» ليس بذاك الغبي، فهو يعرف ما ترمي إليه هذه الـ «سهى» في رواية «ينحني الصابر للوجع»، و«نهى» في حياة «مرهون» الواقعية، أي إنها تريد ابتلاع البيت، والهروب تاليًا إلى مجهولٍ ما، بل وربما كان هناك ما هو أفظع، ربما تقتله؛ فالمرء مخبوء تحت لسانه، كما قال أحد الحكماء.

29

أخذتْ المسائل القانونية مجراها المعتاد بين القضاء والاتحاد العام للأدباء، وصارت قضية رواية «مرهون» تتضاعف في الأوساط الثقافية.. في اتحاد الأدباء، وفي شارع المتنبي، وبين المؤسسات الثقافية، وفي المقاهي الأدبية، خصوصًا أن اتصالات «حسن المزهون» بعددٍ من المثقفين في الداخل والخارج آتت ثمارها، فهم وفوا بوعودهم وكتبوا حول الموضوع، ودخل موضوع رواية «مرهون الشاكر» في مناقشات بوابات التواصل الاجتماعي، والتي للأسف حتى الآن لم أُجرِّب عالمها، لكن «المزهون» ينبش في صفحاتها، وصوره تصل في خلال لحظات إلى كل مكان في ظل انتشار أبناء بلدنا في كل دول العالم، ولا أدري كيف تعلَّم «المزهون» كل ذلك، ومن أين يأتي بالكهرباء لتشغيل الحاسوب أو اللاب توب كما يسميه عندما يريد أن يُظهر انتماءه للراهن، كما يقول ذلك أمام الآخرين.

عاملون في صحف محلية مختلفة اتصلوا بي، وصرتُ، بين ليلة وضحاها، نجم البرامج الثقافية على هامش نجومية «مرهون»،

وكانت «مريم» تتابع مجريات ما تقرأ وتشاهد في التلفزيون، وتسمع من المذياع ومن الناس حول الموضوع، وكانت ترفدني بكل التفاصيل..

رسالة أخرى بعثها لي الناشر اللبناني، يستعجلني فيها بإرسال المخطوط في حال اكتماله.. فكتبت له، وهو الذي سمع بما يجري حول رواية «مرهون»؛ لأخبره بأن الرواية صارت ملفًّا في القضاء، وأن جهودًا حثيثة مشتركة تجري للحصول على ما هو مفقود من فصولها.

اتصل بي المحامي «عمَّار القاضي»، وأخبرني بأنه تكلَّم مع «نهى» زوجة «مرهون»، هاتفيًّا، وقال: إنها أنكرت أن تكون على علاقة بفقدان فصلي الرواية، وأكد لي أنه ألمح لها بوجود شخص شاهد على الموضوع، فقالت له: «لا يوجد أي شاهد حول الموضوع، وإذا كان سعيد الدهان، صديق المرحوم، قال لكَ ذلك، فهذا الشخص كذاب، فهو يريد أن يبيع الرواية إلى دار نشر ويقبض ثمنها».

كم أنتِ لعينة يا «نهى»، أنا أبيع رواية «مرهون» وأقبض ثمنها؟

يا لكِ من امرأة غبية، ولكن ماذا تتلقَّى من امرأة بائخة سوى اتهامات بالية من هذا النوع؟

أخبرني المحامي أيضًا، بأن الجلسة الأولى الخاصة بالتحقيق ستُعقد يوم الاثنين التالي، وطلب مني عدم حضورها لئلا تحدث مشادَّة بيني وبين «نهى»، فعلى ما يبدو أن الشيطان يسكن هذه المرأة، وقال لي: «ألم تسمع بالمثل القائل إن النساء حبائل الشيطان؟»

عبارة جميلة قالها المحامي: «الشيطان يسكن هذه المرأة»، ويبدو أنه استنتجها من مجرَّد مكالمة هاتفية واحدة مع تلك التي يسكنها الشيطان.. إلا أنني لم أتفق معه في أنَّ النساء هنَّ حبائل الشيطان، فهل من المعقول أن تكون زوجتي «مريم» من هذا النوع؟ هل توافق «مريوم» بأن تكون حبلًا لشيطان يغويها حتى تربطني بنخلة الحديقة كزوج عاق!؟

30

كنت أستمع إلى نشرة الأخبار المذاعة.. كان لديَّ جهاز راديو صغير أضع في بطنه بطاريات صغيرة ليبدأ تغريده عبر الأثير المُثقل برائحة المحروقات في سماء العاصمة، سمعت في النشرة أن يوم أمس هو اليوم الأول، ومنذ أول انفجار سيارة مُفخَّخة جرى في شهر أغسطس 2003 عند مقر سفارة الأردن في العاصمة، تنفجر فيه ثلاث سيارات مفخخة في وقتٍ واحدٍ، لكن المذيعة لم تذكر عدد الضحايا في تلك العمليات الغادرة.

وجدتُ نفسي في حنين إلى حديقة منزلنا، بدأت أعيد ترتيب كراسي الجلسة وكأنني بانتظار ضيف أو ضيوف، وبالطبع لا أفكر في انتظار ضيفة سوى الصحافية «وفاء السامي»، وبحضور صاحبة الشأن، حرمي السيدة «مريم الشبلي» التي هداني الرب إلى كسب ودِّها ورضاها عني، وعن عشيرتي، وعن سلالتي أبد الدهر..

اتصلتُ بها، سألتها عن ولي عهدنا الذي يسكن رحمها سيدًا، يأمرها وينهاها، وسألتها عن علامات ومياسم ما بدا من الحمل على وجهها، فقالت:

- كل شيء أخذ يتغير، صرت أشعر بشفتي السفلى أكبر من حجمها، بل وتهطل نزولًا..

- هذا شيء جميل، أتمنى أن تبقى هكذا لكي تطفئ ظمأ العاشق الولهان.

- أي عاشق؟

- حبيبكِ المغرم بشفتيكِ العذبتين.

- أي حبيب؟ مَنْ هو مغرم؟

- «سعيد»، زوج «مريوم».

انفجرت ضاحكة، لكنَّ رسالةً تراءت لي من شاشة موبايلي، اعتذرت منها، وأنهيت المكالمة لأنظر فيما جاءني..

كانت رسالة طويلة، تبدو قصيدة حرَّة أو قصيدة من الشعر المنثور كما يسمِّيها أحد الشعراء، وفي نهايتها ظهر اسم مُرسل الرسالة، وهو الشخص الذي ترجم قصيدة «جورج تراكل» وعنوانها: «في ألبوم الضيوف»، وأرسل إليَّ نص ترجمتها العربية ولم ينشرها بعد، فشكرته بحب، وأبدى أسفه بشأن موت «مرهون»، وتأسَّف ثانية كونه لم يلتقِه قبل رحيله، وأثنى على تجربته في التناص مع أحد مقاطع قصيدة «جورج تراكل» تلك، وأخذ يتحدَّث عن تجارب الكتَّاب الكبار في هذا المجال، ولعلَّ الروائي الإيطالي «أمبرتو إيكو» أحدهم، ناهيك عن آخرين كثر، وترحَّم على روح «مرهون»

قائـلًا: «ألـف تحية لك يـا مرهون الشـاكر، والرحمـة على روحك الطاهرة»، ثم طلب مني نسخة من الرواية عند صدورها.

ودَّعتـه بمحبـة دافئة، وكتبت له بأننا سـوف نلتقي في المسـتقبل القريب..

رحـتُ أفكِّر في مسـألة التناص، وتذكَّرت محاضرات أسـاتذتنا في الجامعة عن هذا المفهوم المهم، والذي كان «مرهون» متحمسًا له، وحماسته تلك أثمرت إبداعًا في نصوصه.

مـا فعلـه «مرهون» فـي روايتـه، المغلوب علـى أمرهـا «ينحني الصابـر للوجـع»، هـو أنه مارس فعـل التنـاص ابتداءً مـن عنوانها؛ لقـد اصطفى مقطعًـا من قصيدة «تـراكل» كعنوان لروايتـه الأخيرة، وملفـوظ «ينحني الصابر للوجع» هـو تثمير لفعل التناص الذي ظلَّ مسـتترًا، على عكس نصوصه القصصية والروائية الأخرى التي كان التنـاص فيها صريحًـا، إلا إذا كان «مرهون» قد كشـف عن مرجعية عنـوان روايته عبر الإشـارة إلى «تـراكل» في الفصليـن المفقودين، فذلك لا أعرفه حتى الآن!

لقد فرحتُ كثيرًا بهذا التواصل الإبداعي الخلَّاق، وهو ما شدَّني أكثـر لقراءة نص القصيدة التي وصلتنـي، فاتخذت موضعي كقارئ مُحتفٍ بمسـائه الشعري، وبصوتٍ مسموع، بدأت أقرأ القصيدة من دون بلوغ صوتي مسامع الجيران من حولي:

«دائمًا، ومن جديد،

تعود الكآبة..

يا رأفة النَّفس الفريدة..

وينصهر يوم ذهبي

صوبَ نهايته،

وبتواضعٍ،

ينحني الصابر للوجع

وجنون ناعم

انظر

شفق السماء من جديد

ويعود الليل

وينوح بفان..

ويكابد معه الآخر

مرتجفًا تحت نجوم

الخريف..

وعامًا بعد عام

ينحني الرأس بعمقٍ

أكثر».

أعـدتُ قراءتها مرَّة أخـرى وأخرى، ولكن بصمت هـذه المرَّة، بغيـة القبـض على دلالتها الكلية، وقرأتها مـرة رابعة أيضًا لكي أجد «مرهون» في فضائها الدلالي الكلي، كما يقول النقَّاد.

جعلـتُ بصيرتـي القرائيـة تركِّز علـى الملفوظ الشـعري الأول «دائمًـا، ومن جديد تعود الكآبة»، هذا هو الهمُّ المؤلم؛ فـ «مرهون» دخـل نفـق التيـه الكئيـب عاجزًا عـن فعـل أي شـيء؛ أي فعل، أي حركة، سـوى الصبـر على ما جـرى؛ ليأتي ملفوظ «ينحنـي الصابر للوجـع» كتحصيل حاصـلٍ، كنتيجةٍ، كمآلٍ ومصيرٍ عاسـفٍ للذات الذكوريـة المعطلـة عن تغييـر الحال بكل مـا فيه من خـرابٍ ودمارٍ ومـوتٍ وفضيحـةٍ ورذيلةٍ ودعـارةٍ وعهرٍ.. لم يفعل «مرهون» شـيئًا سـوى الانحنـاء والخضوع والإذعان لقدرٍ غامـضٍ حتى التفَّ عليه المرض، وأودى به إلى مصيره الموعود به.

هكذا كنت أفكِّر وأنا المغمور في جو الرواية من جهة، وفي حياة «مرهـون» الذاتية والوجودية من جهة أخرى.. «أجد من المناسـب قـراءة الفصـل الرابـع»، هكذا قلـت، فدخلـت إلى حجـرة مكتبتي كالمجنون، وسحبت بيديَّ الصندوق من تحت سريري الخاص في المكتبة، اسـتخرجتُ الفصل الرابع، وعـدت إلى الحديقة، رغم أن

الشمس بدأت تلم خيوطها عن أغصان العنب الوارفة.. جلست أقرأ الفصل الرابع الذي يبدأ بالمقطع السَّردي الآتي:

«كانت أمي تمسك بيدي، تقبض على غضبي، تسوِّر حنقي، تلجم ثورتي في أي لحظة أفكِّر فيها بالتخلُّص من فَجْرِي الثاني، الفَجر الغائم، الخائن، فَجر الرذائل المقيتة، من سُهى، المرأة العاق.. ولكن، ومنذ تلك الليلة التي أيقظتني فيها أمي منتصف الليل، وأخبرتني هلعةً بأن سُهى دخلت البيت، وعندما دلفت إلى الصالة سقطت أرضًا.. منذ تلك الليلة التي كانت فيها سُهى مخمورة سُكرًا، والبقع الحمراء منتشرة على رقبتها، وفي أعلى نهديها، منذ تلك الليلة، صار يقيني بأنني العار، الرجل العار، الزوج العار، الإنسان العار الذي يشهد لحم زوجته تلحسه ألسنة الرذيلة وتعضه أنياب الخيانة.. في تلك الليلة الليلاء، عادت أمي وألجمتني ثانية عمَّا بدا من سُهى، قالت لي بتوسُّلٍ: يا بني اتركها للغد، للصباح؛ بين ساعة وأخرى يتغير الحال. وعندما حملتها إلى سرير نومنا، كانت رائحة الخمر تمارس حضورها المعتق وهي تنبعث من كل مسام جسدها الخاوي من أي كرامة. كانت تقول لي، في تلك اللحظة، وبلسانٍ ثقيل الكلام: هل رأيت يا زوجي المُثقَّف، كيف أنا عاهرة بشكلٍ رسمي، زوجة محترفة في الفجور والغرام والخلاعة، لا أخونك في النهار فقط بل وفي الليل أيضًا، ماذا أفعل؛

أنا خُلقتُ لأخونك، لأنام في حضن غيرك، هذا المساء، مثلًا، أحياه معي ثلاثة من عشَّاقي، أحدهم قوَّادي الذي تعرفه ولا تعرفه، واثنان جُدد، أحدهما ضابط الدورية في منطقتنا، والآخر إرهابي، تصوَّر.. كل منهما يتربَّص بغيره، الضابط يتربص بالإرهابي وهذا الأخير يتربَّص بالأول، لكنهما، ولأول مرَّة، يجتمعان على جسدي ليلًا.. الضابط والإرهابي، لأول مرَّة يتفق ضابط مع إرهابي على قضية واحدة هي قضية اسمها جسدي، جسدي هو وطنهما الحقيقي، كلاهما يحرس جسدي بطريقته الخاصَّة كما يحرس كل منهما الوطن بطريقته الخاصَّة، قلت لكَ إن الوطن يريد مني أن أُضحِّي من أجله، أن أكون عاهرة، وهذه مسؤولية تاريخية، كما كان يقول رئيسنا الفَارُّ، أما أنتَ فيريد منك هذا الوطن أن تكون راضخًا ومنحنيًا حتى يرضى عنك، أنْ تكون المثقف الراضخ، ماذا أفعل لكَ، أنتَ لا تريد أن تكونَ راضخًا؛ لا لوطنك ولا لزوجتك، سُهى الفاجرة، كما تسمِّيها أنت بينك وبينك.. جميلة هذه العبارة: بينك وبينك كما يقول الشاعر الفلسفوووس! اتركني.. اتركني.. فأنا نتنة مثل زهرة عطنة، كما قال صاحبك شاروول بودلير، أنا حامضة الرائحة، أما أنتَ فبلا رائحة.. اتركني كما طلبتْ منكَ أمك العاقلة، اذهب يا حبَّاب ونم في حجرها، حجر الوالدة، أكرِّر كلمة حجرها، كما جاءت من الموروث.. أقول لك: اتركني الآن، فأنا؛ أنا السيدة

سُـهى حرم الأسـتاذ رشـيد، أنا كائن نجس وأنت طاهـر، أنا مومس وأنت شـريف، أنا مومس، كما قال شاعرك هزيل الجسد بدر شاكر السَّيَّاب في قصيدة عصيـدة المومس العوراء أو السـوداء، لا أذكُر، اتركني يا بن الـ...».

«السيَّاب» هزيل الجسد يا تافهة؟

صار جسدكِ وطنًا يلهو به العابثون؟

أيُّ كارثةٍ أنت؟

أيُّ قدرٍ أحمق دمَّر حياتكَ يا «مرهون»؟

أيُّ بذاءةٍ شـيطانيةٍ تسـكن داخلكِ يا «سُـهى» أو يا «نُهى» فالأمر سواء؟

بدوتُ مشـمئزًّا ممَّا قرأت في هذا المقطع السَّـردي، «سُهى» في الروايـة تتكلَّم بلا شـعور، إنها تُطلق عنان لا شـعورها وهي تتكلَّم، أُلاحظ مفرداتٍ ورموزًا ثقافية وسياسـية تسخر منها، وهذا يعني أن تلك الرموز قابعة في لا وعيها..

«هل سُـهى تخـون رشـيد؛ زوجها فـي الرواية، لكـي تغيظه؟». تساءلت بحيرةٍ مقلقةٍ..

لا أدري، سـأعرض هذا النـص على «مريم»، فهي امـرأة، لعلَّها تعطينـي تفسـيرًا لشـخصية هذه الــ«سـهى»، إلا أنني دعيـت أناي الحائرة لقراءة الفقرة السَّردية ما قبل الأخيرة في هذا الفصل:

«في تلك الليلة الليلاء؛ الليلة المُضاءة بالفضيحة، لم أنم، بالكاد أقنعت أمي بأن تخلد إلى نوم وإن كان كاذبًا، كانت تبكي حال سُهى أنينًا، وحال الكلام الذي سمعته من سُهى وهي تدلقه بلسانٍ مخمورٍ، يعج بالخلاعة وجلْد الذات، وقفت عند باب غرفتنا، أردتُ أن تغرق سُهى المخمورة في نومٍ عميقٍ، نويتُ خلع تنورتها عن جسمها فجلستُ عند حافة السرير، كانت رائحة الويسكي تنبعث من أنفاسها، وملابسها تفوح منها رائحة نتنة، بدأت أرفع أطراف تنورتها عن ساقيها حتى وصلت إلى وسطها فبدت بقعًا حمراء على أسفل ردفها الأيمن، وكذلك الأيسر، موزعة على لحمها البضِّ جرَّاء عضٍّ بأنيابٍ لاهبةٍ، رفعتُ تنورتها أكثر نحو ظهرها وهي النائمة على بطنها فلم ألمح شيئًا، كانت آثار سوائل ناشفة قليلًا على جسدها، رائحتها تزكم الأنوف، أعدتُ ذيول تنورتها إلى وضعها الطبيعي، تركتها متوجِّهًا نحو حقيبتها اليدوية، فتحتها.. وجدتُ هاتفها الخلوي، صرت أبحث في قائمة الأرقام حتى وجدتها، كانت أربعة أرقام لأربعة أشخاص، رقم الضابط، ورقم الإرهابي باسميهما، أما الرقمان الآخران فبلا أسماء، دوَّنتُ الأرقام الأربعة في ورقة جانبية صغيرة، ورحت أبحث في ملف الصور والأفلام في موبايلها، وهنا ظهرت الفاجعة الكبرى؛ إذ ظهرت سُهى في أحد الأفلام وهي ترقص عارية، سكرانة في غرفة أجهلها، وفي فيلمٍ

ثـانٍ كانت مسـتلقية على كنبةٍ قذرةٍ مستسـلمة للضابط الذي يحاول التهامها بشـراهةٍ، أما الفيلم الثالث فكان أكثـر خلاعةً وفداحةً، كان مـن أسـمته بالإرهابي قـد جعلها مسـتلقية على ظهرهـا حتى هوي عليهـا ولـم تبرز الكاميـرا وجهـه، كان منفعلًا وهو يتكلم بشراسـةٍ، قائـلًا: ...، افتحي... أيتها الـ ...، سـيكتب الله لـك غدًا ألف قصر هناك في ...، كلنا نجاهد من أجل ...، والوطن، والأمة، و ...، ومن ثـم مال بوجهه نحو الضابط الذي كان يُصوِّره بهاتف سُـهى الجوال قائـلًا له: عليـك أن تصوِّر هـذه المأثرة لتتعلَّم الإمـاء التضحية بكل شيءٍ من أجل الأمة، والوطن، و ...

أغلقـتُ موبايلهـا، وعدتُ بـه إلى حقيبتهـا.. هذه أدلـة واضحة علـى خيانتها، بيد أننـي إذا أخذت الأمر إلـى المحاكم لا أفضح إلَّا نفسي، وأخسر سمعتي بين الناس، وأنا شخصية مشهورة، فالأفضل لـي انتظار خيوط ضـوء الصباح لكـي أتصل بوالدة سُـهى، وأطلب منهـا المجيء بدعوى أن ابنتها في حالة صحيَّة سـيئة، فبقيت لثلاث سـاعات حتـى صـارت أميـال السـاعة الحائطية تشـير إلى السـابعة صباحًـا، اتصلت لثماني مرَّات بوالدة سُـهى حتـى أجابت، أخبرتها بالموضـوع، فقالت: أنا قادمة.. حرصـتُ خلال ذلك على أن تكون الأمور هادئة في البيت لكيلا أجعل أي شـيء يوقظ سُهى من نومها، وريثمـا جـاءت والدتها بعـد حوالي خمسـين دقيقة، كانـت الأمور

تجري كما شئت، فأخبرتها بالقصَّة، وطلبتُ منها أن تشم أنفاس ابنتها النائمة، ومن ثم عرضت لها الأفلام الموجودة في موبايل ابنتها حتى راحت تلطم وجهها كاتمة أنين حسرتها، وطلبتُ منها أن توقظ ابنتها، وتأخذها إلى منزلها فهي في حكم الخائنة، لكن والدتها صارت تبكي، وراحت تُقبِّل كفيَّ مذعورة، بل وهوت صوب قدميَّ بالكاد تلفظ هواءً تتنفس لتقبيلهما لكيلا أفضح ابنتها بين الناس أو أطلقها، فوعدتها بذلك لكي تهدأ، ودلفت والدتها إلى حجرة منامنا حيث ابنتها النائمة ورائحة الخمر المتهاوية على ثيابها تفوح من أنفاسها.. راحت توقظها، ليس بكلام اللسان، إنما بالبصاق على وجهها، وبالضرب على فخذيها وبطنها بلكمات موجعة حتى استيقظت مذعورة هلعة، وسحبتها من ساقها نحو الأرض، ومن ثم إلى الصالة نحو الحمَّام وهي ترديها ضربًا، وهناك صارت تضربها أكثر وأكثر بنعالها، فتعالى صراخهما معًا حتى أخرجتها والدتها من الحمام متورمة الوجه، وأخذت حقيبتها الموجودة في غرفة نومنا وخرجتا معًا، وبعد ثلاثة أيام بدأتُ أحسُّ بتناقص الهواء في رئتَي...».

يا للفداحة؛ إرهابي وضابط دورية! كيف جمعتِ يا «سُهى» هذين النقيضين المائرين على وليمة جسدكِ الذي أهنتِه وأنزلتِه منحدر الرذيلة والنهاية المبتذلة؟

كيف لكَ يا «مرهون» تريد مواجهة وحشين في غابةٍ مهجورةٍ؟

أيُّ قدرةٍ جعلتك ترنو إلى صوت صبرك ولا تفضح قاتلة حياتك أمام الملأ؟

أبهذا وجد مرض السرطان طريقه إلى رئتيك؟

ولهذا جاءتك الكآبة الغامَّة لتقضي عليك؟

ولهذا انصهرت أيامك الذهبية حتى تحوَّلت إلى معادن رخيصة؟

لم ترأف بحالك؛ لا نفسك، ولا روحك، فكنتَ الصابر المنحني لآلامك حتى تمكَّن الموت منكَ وأنتَ الذي كنت تنافره بعزم الرجال الأشداء.

«دائمًا، ومن جديد،

تعود الكآبة..

يا رأفة النَّفس الفريدة..

وينصهر يوم ذهبي

صوبَ نهايته،

وبتواضعٍ،

ينحني الصابر للوجع

وجنون ناعم..»

31

أيقظني دويٌّ انفجارات متتالية خضَّت كيان العاصمة كما لو كانت هزة أرضية.. وما هي سوى لحظات حتى رنَّ هاتفي، كانت «مريم» مرتبكة في كلامها، قالت: «أين أنت؟»، قلت لها: «في سريرنا الذي يشتاقك دائمًا»، تمتمت بكلمات دعاء، واستأنفت كلامها قائلة: «وقع انفجار كبير قرب وزارة الثقافة، لقد قلقت عليك يا حبيبي».

قلت لها: «الحمد لله أنني نويت ألا أذهب إلى العمل هذا اليوم».

شعرت أن «مريم» اطمأنت وإن كان خوفها يبدو هذه المرَّة مختلفًا، ربما بسبب الكائن الذي ينمو في بطنها، تبدأ مخاوف النساء على حياتهن أكثر عندما ينمو كائن ما في أرحامهن، ومخاوف «مريم» في محلِّها، مَنْ لها إذا شظَّى جسدي انفجار عبوة ناسفة أو مزقني حزام ناسف حقير في يومٍ ما؟

حتمًا ستضيع «مريم»، وسيضيع «موهون» الصغير معها كما هو حال اليتامى والأرامل اللواتي استُشهد أزواجهن في عمليات القتل المبرمج التي تجري بلا هوادة.

لا بُدَّ لي من منعطف حياة جديدة بحيث، وفي كل صباح، أجد روحي في قبضة جسمي، وفي كل مساء أجدني أضع رأسي نائمًا على وسادتي القطنية وليس على حجارة داخل قبر.

أيُّ نهارٍ تعس هذا الذي أبدأه بمثل هذه الأفكار، وأعيشه بمثل ما جرى قبل قليل من خراب لا أعلم كم من الناس الأبرياء قضوا فيه؟

اللعنة عليكم، ماذا تريدون منَّا؟

حروب، وحصار اقتصادي، وعزلة دولية وعربية، عزلة ثقافية وعلمية ودوائية..

ماذا تبقَّى عندنا حتى تأخذوه في قائمة غنائمكم أيها الأوغاد؟

رنَّ هاتفي الخلوي، كان رقمًا أجهله، ولذلك لم أُذعن له، دخلت الحمَّام، وسمعته يرنُّ ثانية، ومن ثم توجَّهت إلى المطبخ من أجل فطوري حتى سمعته ثالثة يرنُّ، انشغلت بإعداد فطوري، ومرَّة رابعة سمعته يرن، جلست في الصالة وما إن أعددت لقمة خبزٍ لأغمسها في كأس شاي حتى جاءتني رسالة، فقرأتها: «يا بن الكلب، يا نذل،

قريبًا سيكون دمك مهدورًا لتلحق بصديقك السافل مرهون الشاكر.. نهى».

هذا تهديد.. تهديد مجرمة بدأ القضاء يحاصرها، والآن صرتُ طرفًا في قضية رواية «مرهون»، الآن أمتلك تهديدًا غير ناعمٍ، كتبت لها: «شكرًا لكِ، الإناء ينضح بما فيه». فردَّت بعد دقائق برسالة: «عندي رجال يقطعون لسانك وأصابعك الخبيثة يا جبان».

سعدتُ كثيرًا عندما قرأت الرسالة القصيرة الثانية، لما فيها من تهديد يمكن عدَّه دليلًا على جرمية «نهى»..

أما الرجال الذين تعنيهم، فهما الإرهابي وضابط الدورية، خونة الإنسانية الجُدد..

أنهيت فطوري، اتصلت بالمحامي «عمَّار القاضي»، وأخبرته بموضوع تهديدات «نهى»، قال لي: «احتفظ بها، تراها أدلة مفيدة للمستقبل، وفي الوقت نفسه كُن حذرًا منها؛ فأنت تعرف أن هذه المرأة يسكنها الشيطان، ويمكن أن تتفق مع حثالة بشر ما على قتلك بدمٍ باردٍ».

وعدته بأنني سأكون حذرًا في هذا الموضوع، وهو ما بدأتُ أفكر فيه بجدية.

المحامي لا يعرف ما قرأته يوم أمس في الفصل الرابع، رغم أن ما ذُكر فيه غالبًا ما يُصنَّف في مجال السَّرد المُتخيَّل، لكن هذا

السَّـرد، وعلى نحوٍ أو آخر، تراه «يُسـرّب الواقـع»، كما يقول الناقد المغربي «سـعيد بنكراد»، ولو قـرأ المحامي ما قرأته أمس في رواية «مرهـون» لتوصَّـل إلـى الطبيعـة الإجراميـة التي تسـكن «نهى» في الواقع الواقعي، وتسكن سُهى في الواقع المتخيَّل سرديًّا.

مـن جانبـي، أخـذتُ تهديـدات «نهى» لـي على محمـل الجد، أبلغـت بضـع رجـال يعرفونني في الشـارع الذي أسـكن فيـه بأنني تعرَّضـت إلى تهديداتٍ، وكذلك أبلغت مديـر إدارة الوزارة بالأمر، وذهبـت إلى صديـقٍ لي يمتلك خبرةً في عالـم الهواتف الخلوية أو الجوالـة، وطلبـتُ منـه طبع الرسـائل التـي وردت مـن «نهى» على ورقـة، رغـم حرصي على عـدم معرفـة الكثير من النـاس بموضوع التهديدات التي وردت في رسـائل عاشـقة الإرهابي السيدة «نهى»، وذهبت، بعد ذلك، إلى بيت أم «مرهون»، وطلبت منها معاينة بعض أوراق «مرهون» أو دفاتره الصغيرة الذي كان يُسـجِّل فيها كل أرقام الهواتف من دون أن أُعلمها بالتهديدات، لا هي، ولا حتى «مريم»، لكيـلا تشـعران بالرعـب، وتحصَّلت بالفعـل على رقـم الإرهابي، ورقم ضابط الدورية، وبقية الأرقام التي كتب عليها «مرهون» كلمة «مجهولـة»، ما يعنـي أن ما كتبه «مرهـون» في روايته بوصفه سـردًا متخيَّلًا سـرَّبه من الواقع الواقعي إلى الواقع المتخيَّل، وهذا سيكون سـرًّا لا يعرفه أي أحد سـواي كي لا تسـقط الرواية في «التسـجيلية السـاذجة» كما يقول بعض نقَّاد السَّـرد الروائي، بيـد أنني، وقبل أن

أخـرج مـن بيت أم «مرهـون»، وبعـد اطمئناني على صحـة «مريم» وحملها التاريخي كما أحب تسـميته، سـألتُ أم «مرهـون» فيما إذا كانـت «نهى» تعرف مكان مسـكني أم لا؟ فقالت لي: «إنها تكرهك أكثر مما تتوقَّع، لا تريد أن ترى وجهك، فكيف تعرف مسـكنك إلا إذا كان المرحوم أخبرها عنه؟»

منحني جـواب أم «مرهون» هذا بعض الهـدوء، وبدَّد مخاوفي، لكنها الشـريرة «نهى» تتمتَّـع بخيالٍ نافرٍ، وهذا مـا كان يحدِّثني عنه «مرهـون» دائمًـا؛ لذا يجـب أن أكون حـذرًا هذه المـرَّة من حقدها ونواياها اللئيمة، وما يستتبع ذلك من تصرُّفات عدوانية محتملة..

مضـت أيام عدَّة مـن دون أن أتلقَّى أيَّ مكالمةٍ مشـبوهةٍ، ولكن أصابني مرض الحذر الفائق من مخاطر محتملة قد تحيق بي، وهذا شـأن أبناء وطننا جميعهم الذين اعتـادوا الحذر من أجل البقاء على قيـد الحياة، ليس جبنًا لأنهم بصدد إرهابٍ أعمى وموتٍ أصم، إنما توخيًـا، رغم أن الحذِرين طالتهم يد الغدر والاغتيال، وجزُّ الأعناق في حالاتٍ كثيرةٍ، فكم من المثقفين تم اغتيالهم، ناهيك عن غيرهم من بقية الناس؟

32

يكاد موعد جلسة التحقيق الأولي يقترب، وأتذكر نصيحة المحامي بألا أكون حاضرًا هناك، ولكن المشكلة الكبرى كيف لي معرفة ما سيجري هناك؟ أخذت أفكر حتى لاحت لي فكرة الاستعانة بصديقٍ أو بالأحرى بصديقةٍ، ولما كانت «مريم» شعرت بالارتياح إلى الصحافية «وفاء السامي» في لقائهما السابق، فالأولى الاستعانة بها، وهي حتمًا ستطير فرحًا إذا ما أخبرتها بموعد الجلسة.

فعلت ذلك، اتصلت بـ «وفاء»، وطلبت منها الحضور، فسألتني عن سبب عدم حضوري الجلسة، تذرعتُ بحمل زوجتي، وأخبرتها بأنني على موعد مع طبيبة «مريم» في يوم جلسة التحقيق نفسه، فأبدت «وفاء» تفهمها الإنساني لما سمعته مني.

مع ذلك، تراني لم أكتفِ بمصدرٍ واحدٍ، فقد اتصلتُ بصحافي صديقٍ لي يعمل في جريدة «الصباح»، وأبدى تفهمًا مماثلًا لما أبدته «وفاء»، وبذلك صار عندي أكثر من مصدر إخباري لحضور الجلسة، فضلًا عمَّا ستجود به بقية الصحف والإذاعات حول قضية التحقيق مع زوجة «مرهون».

في صباح يوم جلسة التحقيق، وبينما كنتُ منهمكًا في ترتيب بعض الأوراق في مكتبتي المنزلية، جاءتني رسالة قصيرة عبر الهاتف من «مريم» كتبت فيها: «سعيد، أمس لم أنم حتى الفجر، أشعر أنني بحاجةٍ إليك، الجنين بات يأخذ كل طاقتي، أحتاج إلى دفئك، مضت شهور على الحمل ويمكن أن..».

آهٍ من هذه الـ «مريوم» عندما لا تكمل عباراتها، عبارة «يمكن أن..» تنطوي على محذوف أو مُضمر غائب جسدًا حاضر دلالة، إنها تريد شيئًا من الدلع، الهمس الدافئ، وربما أشياء أخرى.. ولذلك يتوجَّب عليَّ استنفار طاقة رجولتي بحنان كوني، كما تحب «مريم» أن تقول ذلك دائمًا، لكي أدخل في منافسة وليٍّ عهدنا المختبئ مؤقتًا في رحمها، والهانئ بامتصاص رحيق طاقتها بلا هوادة.

اتصلتُ بها، وأخبرتها بأنني في طريقي إليها، شعرتُ بغبطتها أكثر مما تشعر هي بها.. وفي الطريق إليها، أرسلت لي «وفاء» رسالة قصيرة تُعلمني فيها ببدء جلسة التحقيق، ومثول زوجة «مرهون» برفقة حارسين لا يشبه أحدهما الآخر، ما يعني أنهما ليسا أخويها، وهو ما يبدو غريبًا، فكتبت لها أنَّ هذا الأمر أصبح معتادًا في بلادنا المجنونة، رغم علمي أن السافلَين اللذين يرافقانها هما الإرهابي وضابط الدورية.

في طريق عودتنا إلى منزلنا، أنا و«مريم»، وهي التي كانت نائمة يهدُّها تعب ليلة لم تذق طعم النوم فيها، جاءتني رسالة قصيرة من

صديقي الصحافي كتب فيها: «عزيزي سعيد، نهى، زوجة المرحوم مرهـون، أنكرت أنها تملـك أي فصول من روايـة زوجها، وقالت: إنهـا ذهبت إلى المستشـفى، ولـم تَـرَ أي أوراق أو ملف إلى جانب زوجها قبيل وفاته في المستشـفى، فأخبرهـا المحقِّق بأن هناك أحد الشـهود يؤكِّـد وجود أوراق مخطـوط الرواية، وأنهـا عبثت بأوراق الروايـة، فاضطربـت، لكنهـا قالت: أنا مُستعدَّة لمواجهة الشـاهد. وحـدَّد ضابـط التحقيق يوم الأحـد القادم موعدًا للجلسـة التالية... تحياتي».

مـا إن دخلنـا إلـى منزلنا، حتـى دلفت «مريـم» إلى غرفـة نومنا، واسـتلقت على السـرير لتغُطَّ في نومٍ عميقٍ هذه المرَّة، جلستُ إلى جوارها أتأمل وجهها المشع بضوء القَمر وقد تغيرت بعض ملامحه، شـفتاها كبرتا، خصوصًا السُّفلى منهما والتي أخذت تتهدَّل، نظرت إلـى بطنها الذي أخـذ بالبروز، كانـت طريقة نومهـا الجانبية توحي بتوخيهـا الحـذر لكيلا تؤثر في وضعية الجنيـن داخل رحمها، قلت لنفسي: «جميلة هذه المرأة الحامل..».

طبعـتُ قبلة على جبينها، وتركتها تنام هانئة لأنصرف إلى متابعة مجريـات التحقيـق مـع «نهى»، فاتصلـتُ بالمحامي، لكنـه لم يرد، إلا أن «وفـاء» اتصلت بي، ودخلت معي في حديث التفاصيل حول كل ما جرى في الجلسة، وبعد نصف ساعة، عاود المحامي الاتصال بـي، وأخبرني بما جرى أيضًا، وطلب منـي الذهاب إلى «أبو نادية»

كونه الشاهد الوحيد في القضية، وذلك لإقناعه بضرورة الحضور، ونصحني بإعطائه مبلغًا من المال كإكرامية ومصروف طريق حتى يأتي في الموعد المحدَّد للجلسة الثانية، وطلب مني إخباره بأنه سيحصل على مبلغٍ آخر من المحامي يوم الجلسة كهدية من رئيس اتحاد الأدباء..

لم تعجبني كثيرًا هذه الطريقة في التعامل مع «أبو نادية» وكأننا نقدم له رشوة، بينما هو رجل طيب النوايا، خصوصًا أنه قبلَ مني مبلغ المال الذي أعطيته له في لقائي السابق على مضضٍ. ولكن لا بأس، فالأمور تسير بحسب ما نريد نحن أحبَّاء المرحوم «مرهون الشاكر».

وجدتها فرصة استغراق «مريم» في نوم معمَّق أن أعمل على تنظيف الحديقة، فمضيت لأحرق ساعة كاملة من الوقت، وبعدها دخلت إلى المطبخ لشطف أية صحون مغبرة، وتنظيف أرضية المطبخ، ومن ثم دلفت نحو الحمَّام للبحث عن أيِّ ثيابٍ غير مغسولةٍ حتى أتيتُ عليها كلها لأنشرها تاليًا في الحديقة تحت لواهب أشعة الشمس.

في تلك الساعات، وجدتُ نفسي زوجًا مثاليًّا يتحمل أعباء مسؤولية أن تكون زوجته حاملًا حتى غربت شمس النهار متوارية خلف المنازل المجاورة ليأتي دوري وأغسل عن جسدي كل التعرُّقات بالاستحمام الذي كنت ضيفه لنصف ساعة.

عندما انتهيتُ من احتفاء الماء بجسدي، دلفت إلى صالة الدار، فسمعت «مريم» تناديني بصوتٍ خاملٍ: «سعيد.. سعيد..»، ولم أكن أرتدي ملابسي الداخلية بعدُ، كانت المنشفة البنفسجية اللون تلف نصف جسدي، فدخلت إلى الحجرة، رأيت «مريم» مستلقية على ظهرها، لكنها سرعان ما أومأت لي بالجلوس على حافة السرير، مسكت يدي بحنوٍّ، لمست الدفء في كفيها، سحبتني إلى صدرها، في تلك اللحظة الوامضة بالرغبة، أخذ خيالي الخامل لابتعاده عن دفء أنثاي فترة مضت يستيقظ من سُباته معلنًا صبابته الأسطورية ورغبته بتفكيك هجراني، وتأكيد استعداده لأول مداهمة غرامية بعد تلك الكرور العشقية الهائجة التي جعلت بطن «مريوم» منفوخًا، فنحَّت المنشفة الحمراء المبتلة جانبًا، وقالت: «أنا سألتُ أم محمد صديقة أم مرهون عن ...».

- عن ماذا؟

ضحكت بانتشاءٍ، وضمَّت رأسي إلى نهديها بلمسة حياء غير معهودة، وقالت: «إن أم محمد أخبرتني بأنه لا يجوز للمرأة منع الرجل من...»، فسألتها برفق:

- من ماذا يا روحي؟

- انظر إلى نهديَّ.. ما عادا كما كانا قبل الحبل؟

- أكيـد يا عمـري، لا بُدَّ لهما من أن يكبـرا، لكنهما الآن أكثر خصبًا ونضــارة مـن ذي قبل، ووعدًا منـي يا روحي، ومهمــا كبر نهداكِ، فلن يســرقهما مني ولــيٌّ عهدنا القادم، لقد نذرتُ شـفتي لهما أبد الدهر، فهما وســادتَي الملائكيتان، ومــلاذ حنيني إليك، ومرتعي في لهفي لك، و...

قلت ذلك، وشـفتاي تلتهمان برفق نهديها وهما يضوعان شـوقًا لشـفتيَّ حتى روَّضت جسدها بتؤدة، وبما لا يؤثر في حمل رحمها؛ ليرحل جسـدانا السـاخنان إلى بعضهما، وكان ظــلام الليل يحرس قيامتنــا الوردية، ويصلي لأجل عرســنا المتجدِّد حتـى توارى بفجر صبحٍ جديد.

33

عندما وضعت قدح وإبريق الشاي أمامي، مجالسًا حديقتي، غرقت في دوَّامة سؤالٍ عمَّا جرى ليل أمس، سؤال الرغبة الأنثوية العارمة التي بدت عليها «مريم»، قد أكون مخطئًا بأن النساء، في أثناء حملهن، لا يسجلن رغبة جنسية شبقية مع أزواجهن، فإحساس المرأة بالحمل، وكذلك عيش لحظته الوجودية، غالبًا ما يبعدانها عن ممارسة الحب، بل حتى عن مجرَّد التطلُّع الشبقي لقيامته.. لأول مرَّة في حياتي، ومنذ تزوجت «مريم»، وجدتها تعض شفتَي بقوةٍ، وكذلك ثديي الأيسر الذي كان الأقرب إلى فمها الوردي الشفاه..

«هل هي رغبة شبقية خالصة أم محضة من أجل مجرَّد الرغبة أم أن هناك بواعث أخرى؟ هل كان النسوة، صديقات أم مرهون مثل أم محمد التي ذكرتها مريم أمس أثناء قيامة شبقنا الاستثنائي، قد قصصن عليها حكايات نساء أخريات لكي تشعر مريم بالحنين إلى فحولتي أم تريد التأكُّد من حبي لها؟ أم تريد اختبار صلابتي الجنسية؟ أم تراها تشعر بحرماني من ممارسة الجنس معها وقررت تسليتي إشفاقًا ورحمة بي؟ لا أدري! قد تكون مجرَّد نزوة عابرة

اجتاحتهـا؟ أو ربمـا أصبحت الضغـوط المحيطة بهـا تجعلها تفكر بخرابٍ محتملٍ يحصـل بيننا أو الخراب الذي يمكن أن ترميه علينا أقدار الحياة التي نعيشها في بلدنا التعيس؟ لا أدري؟ كانت طريقتها في ضم رأسـي إلى صدرهـا غريبة، كانت أكثر حميميـة هذه المرَّة، ربما لا تريد أن تفقدني كما فقدت آلاف النسوة أزواجهن وأبناءهن وإخوتهـن في وطننا عبر الموت بالمفخخـات والعبوات والأحزمة الناسـفة، وغير ذلك من طرق الموت المجانية؟». مجرَّد تساؤلات حدَّثت بها روحي الهائمة..

سـمعت صوتها يناديني: «سعيد.. سـعيد..»، التفتُّ إلى الوراء، كانـت واقفة وهي ترتدي ثوبها الشـفاف عند عتبة الباب، قالت لي: «تعالَ»..

دخلـت إلـى الصالـة، طبعـت قبلـة علـى جبينهـا، ضمَّتنـي إلى صدرهـا، وقالـت لي: «تعـالَ معي إلـى الحمَّام، أريد أن تغسـل لي جسمي، أن نستحم معًا».

قالت ذلـك ورائحة النشـوة الرهيفة عالقة في صوتها الوسـنان، طبعتُ علـى خديها وعينيها قبلًا متتالية، وقلت لها: «اسـبقيني أنتِ حتى أجلب ملابسنا..».

تذكَّرت أننا، وعندما كنَّا في شهر العسل، كثيرًا ما استحممنا معًا، هل تذكر؟ كنا نمضي سـاعات وديعة والمـاء الزلال يجمعنا احتفاءً بنا كعاشقَين عطشين للحياة..

عندما انتهينا من استحمامنا، بدت «مريم» أكثر هدوءًا، وأكثر امتنانًا لي، أردتُ الدخول إلى المطبخ لكي أعدَّ فطورها لكنها سبقتني إلى ذلك قائلة:

- دعه لي.. لكَ فقط أن تجلس خارج الصالة.

عندما جلسنا في الحديقة، حديقة منزلنا، كانت الابتسامة الملغزة ترسم بهجتها على فم «مريم» وهي ترمق شفتي قائلة:

- شفتك متورمة.. أنا جعلتها هكذا، أليس كذلك؟

ثم ابتسمت، وقالت بدلالٍ:

- يمكن أن تناديني بالمجنونة، والجنون فنون؛ لذلك أعتذر منك يا «سعيد»، لا أعرف ما جرى لي خلال اليومين السابقين، خصوصًا أمس، كل شيء دار في رأسي كان غامضًا. قلت مع نفسي: «سعيد» وحده يمنحني الوضوح في حياتي، ويحطِّم أوهامي، ويقضي على شعوري بالخوف من المجهول، أعتذر منك يا «سعيد»، بدوت امرأة باطشة معك ليل أمس، كنتُ خائفة من أنَّك، وعندما تطارح همس رغباتي، قد تخنق الجنين، لكن الأمر مضى بسلاسة، رغم أنك كنتَ عاصفًا، وأعذرك، يا سيدي ونور عمري، بأنك كنتَ محرومًا من أشيائي التي تحبُّها، ولكن بعد الولادة، سأعوضك ما حُرمت منه في فترة الحمل، هذا وعد من حبيبتك «مريوم».

وهي تتكلَّم، كانت تتلذَّذ بأي لقمة تضعها في فمها، تتذوَّق الشاي بعد كل رشفة من كأسه بلسانها الناعم، كل شيءٍ بدا عليها مختلفًا، حتى بلاغة قولها بدت مختلفة، يبدو أن حمل المرأة يفتح خيالها على عوالم جديدة، والحمد لله لم أُخيِّب أملها في كل شيءٍ، سواء خلال ليل أمس أم في هذا الصباح.

ما هو مهم، أن «مريم» تشعر الآن بالارتياح، فوجهها صار مضاءً بالفرح، حتى مفاتن جسدها تقرأ قصيدة حضورها الملائكي، الفجوة بين نهديها مطلقة نهرها لضوء الشمس الذي اخترق أوراق العنب المتهدِّل في فضاء الحديقة وحطَّ رحاله على بضاضتها الوردية، وقميصها الأبيض أضحى موسيقى حالمة، وشعرها الرطب بدا تحت ضوء النهار عاطرًا برائحة الياسمين، وأصابعها التي تمررها برشاقة على بطنها المنفوخ، بين لحظة وأخرى، اطمئنانًا على جنينها، تكشف عن شعورها الدافق بأمومة مبكِّرة، وكأنها تقول: «ها أنا، سيصبح لي طفل يناغيني: ماما.. ماما».

فكرت بالحديث عن موضوع رواية «مرهون» معها، فإذا بها تفاجئني بسؤالها عن الرواية قائلة:

- «سعيد»، هل قرأت فصول رواية «مرهون» كاملة، أقصد غير المفقودة منها؟

- نعم، قرأت الفصلين الثالث والرابع، فوجدت العجب، وشعرت أنني بحاجة إليكِ.

- كيف؟

- أريد منكِ قراءة بعض الفقرات في هذين الفصلين بالذات، أريدكِ، وأنتِ امرأة، أن تفسري لي سلوك «سُهى» في الرواية كما صوره «مرهون» كناصٍّ أو مؤلِّفٍ لروايته.

- هل يستحق الأمر هذا الاهتمام؟

- نعم، فأنتِ، ومنذ أيام الجامعة، أحرقتِ كثيرًا من الوقت في قراءة روايات طويلة، وروايات قصيرة أو ما تسمى بـ «Novella»، وكذلك قرأتِ الكثير من القصص القصيرة، ووقفتِ فيها عند البُعد النَّفسي، وهذا ما أحتاجه منكِ يا «مريم».

- هل تريد أن تنصف «سُهى» في الرواية أم تريد نسفها؟

- لا هذا ولا ذاك، فقط أريد أن أفهم، خصوصًا أن التحقيق مع «نهى» بدأ في جلسته الأولى، ولو اعترفت بأنها سرقت الفصول المفقودة، سنكون قد توفقنا في حل المشكلة لندفع الرواية إلى النشر.

- هل تفعلها «نهى»؟

- ولمَ لا؟

- أنا أشك، ولكن يا روحي وحبيبي، ويا والد ابني القادم، أعطني الفقرات التي تريد مني قراءتها، ولكَ أن تتركني وحدي أربع ساعات فقط، وعندما تعود سنجلس للحوار بشأنها.

- لا بأس، هي لكِ، أما أنا فسأذهب إلى السوق لشراء بعض الحاجات، ومن ثم أذهب إلى المقهى للقاء بعض الأصدقاء..

- اتفقنا..

أعطيتها الأوراق كلَّها، وأخبرتها بأن تركِّز قراءتها في الفِقرات التي علَّمت عليها بخطٍّ أحمر، لكنها خاتلتني ومسكت يديَّ بحنوٍّ وبأنوثة غامرة لتطبع قبلة عليهما تباعًا، وقبلة أخرى خفيفة الظل على شفتي المتورمتين من دون أن تنظر في عينَيَّ، ومن ثم تدلف غنجة إلى الصالة بخطوات مفعمة الصبا وهي تمرِّر أصابع كفها اليسرى على بطنها بدلال يُضيء نشوة مرحة..

«يا للمرأة الحامِل!»، هكذا قلت لنفسي.

34

أمضيت ساعاتٍ في المقهى برفقة أصدقاء من سكنة حينا، كانت كل أحاديثنا تدور حول ما يجري في العاصمة من أحداث عنف دموية، وموت مُبرمج للإنسان في كل مدن الوطن، ومشكلات ما تركه كل ذلك من آثار فادحة في النساء الأرامل والأطفال اليتامى في ظل دولة ضعيفة، ومُحتلٍّ أمريكي مخادعٍ، ودول جوارٍ تريد الوطن ضعيفًا مهزوم الجبين، ممزَّق الذات.

كان اليأس سيد الشعور العام لدى كل المتحدِّثين، لاسيما أننا، وفي أثناء جلستنا، سمعنا عن دوي رصاص متقاذف في ظل كلامنا عن بوادر ونُذُر حرب أهلية مذهبية تلوح في الأفق..

كان ثلاثة من الأصدقاء الجالسين في المقهى تركوا أماكن عملهم في مناطق أخرى، أغلقوا محالهم وورشهم التي يملكونها هناك، وصاروا يبحثون عن محال بديلة في الحي الذي يعيشون فيه مع أطفالهم وزوجاتهم حتى لا يتعرَّضون إلى الخطف أو الاغتيال من جانب عصابات منتشرة في كل مكان بالعاصمة، كان بعض

الجالسين يفكّر في تقسيم بعض البيوت إلى محالٍّ لكي يحوِّلوا الحي من سكني إلى تجاري سكني، وهذا ما صار بالفعل في مناطق أخرى داخل العاصمة حتى صارت ظاهرة آخذة في التطور نحو الأسوأ.

أخذت الحرب والتغيير السياسي الذي جرى في بلادنا تؤثران في بنية المجتمع المهنية والسكنية والأخلاقية، فكل شيءٍ أصبح يمضي بطريقة جديدة، جميع الجالسين في المقهى يلاحظون ظاهرة العزلة التي يعيشها الناس في مناطقهم داخل العاصمة، لا أحد يزور قريبًا في مكانٍ يبعد أكثر من ثلاثة كيلو مترات، وحتى هذا غير ممكن في أحيانٍ عدَّة، كما أن السفر إلى المحافظات بات محفوفًا بالمغامرة والغباء أحيانًا، عمِّي «أبو مريم» حدَّثني عندما جاءني معزيًا أم «مرهون» عن جثث متعفنة كانت مهجورة عند حواف الطريق العام بين بغداد والحلة، كانت مهجورة ولا أحد يستطيع الوصول إليها لأنها هي الأخرى مفخخة.

بدا الحزن مهيمنًا على الجالسين، كان الأفضل لنا فض الجلسة، والعودة إلى منازلنا، فكل الأحاديث تبعث فينا الهموم على نحوٍ مؤذٍ ومؤلمٍ ومخيفٍ..

افترقنا، كلٌّ مضى إلى غايته وهو يحبس ألف قهر وقهر يعتصر كيانه.

35

وبينما كنت عائدًا إلى المنزل، اتصلت «مريم»، وكالعادة كانت تريد أن تعرف أين أنا، وماذا أفعل؟ أخبرتها بأنني في طريقي إلى المنزل، طلبت مني شراء خبز وبعض الفاكهة، سألتها فيما إذا كانت قرأت فصل الرواية، فقالت: «نعم، لا بُدَّ أن تأتي مسرعًا للحديث عن هذا الموضوع».

عندما دخلت إلى المنزل، كانت رائحة الطعام المطبوخ تملأ فضاء الصالة، وكانت معدتي قد مُلئت بشاي مقهى «أبو كريم» قليل الطعم.

جلسنا معًا على مائدة غداء أسطورية هذه المرَّة، يبدو أن ما جرى ليل أمس قد فتح شهية «مريم» في الطبخ الملكي، كانت تحتفي بي في كل لحظة، إلا أنني سألتها:

- ما هو رأيكِ فيما قرأتِ؟

- موضوع «سُهى» في الرواية أمر محير جدًّا، حاولت في قراءتي عدم الربط بين «سُهى» في الرواية و«نُهى» في حياة «مرهون»،

سـأترك هـذا الربط لـكَ، وإن كنت سأشـير إليه قليـلًا، حتى أفهم النَّص بوصفه عملًا متخيَّلًا.

- هذا جميل، وماذا وجدتِ؟

- أتفـق معـك فـي أن «سُـهى» التي جـاءت إلـى المنزل ليـلًا وهي مخمـورة، والعياذ بالله، كشـفت عن بنية اللا وعي أو اللا شـعور في داخلها، وتلاحظ في كلامها الذي تحدَّثت به إلى «رشيد»، في الروايـة طبعًا، وجود بعـض دلالات تخص عالم الأدب والإبداع واللغة؛ «السَّياب»، والفيلسوف أو الشاعر الفلسفوووس.. والتي لفظتها بلسانٍ ثقيلٍ لأنها مخمورة، وعبارات من مثل: حجر أمك، المومـس العمياء، بينك وبينك، وغير ذلك، هي عبارات تكشـف عن أن «سُـهى» غير بعيدة عن عالم البطل «رشيد» وهو مثقف في الرواية، لكن «سُـهى» أدلقت كل تلك التعابير بأسلوب السخرية، بمعنى أنها كانت تريد أن تسخر من عالم زوجها الذي يتشبَّث به، وهـو عالم الأدب والثقافة، كانت تريد أن تُدينه من فمه، تُدينه بما له من أداة ووسيلة يخاطب بهما العالم من حوله، كانت تريد إثارة حنقه، وإشعال حرائق اغتياظه، وحتى مجرَّد ذكرها لرئيسنا الفار، كما ورد في النص، جاء بسخرية فظيعة، تخيَّل ذلك..

- هـذا تحليـل جميـل يـا «مريـم»، ولكنها كانت تسـخر مـن والدة «مرهون» أيضًا؟

- تلـك هي عقدة «سُـهى» فـي الرواية أو عقدة الكَنَّـة والعَمَّة، وهي عندمـا تسـتخدم عبارة «حجر أمـك» ربما كانت تريـد التعبير عن عقـدة كبيرة من عقد حياتها الزوجية، كانت تريد أن تقول لزوجها إنهـا تغار مـن والدته التي تحبه ويحبها، كان هـذا الحب المتبادل بين الأم والابن مشـكلة لدى «سُـهى»، كانت تريد من «رشيد» أن ينفرد بحبها هي فقط، كانت تريد انفراد قلبه بها دون غيرها.

- يا «مريم»، قد يكون هذا التحليل ممكنًا، إلا أن «سُهى» في الرواية خرقـت المعتاد عندما تأخَّرت عن المجيء إلى المنزل، خصوصًا أن أحداث الرواية تجري في ظروف مكانية وزمانية صعبة يعيشها الوطن كما صورها المؤلِّف في روايته.

- هـذا صحيح، وهو يمثل شـكلًا من أشـكال التحـدي الذي كانت «سُهى» تستعجله مع زوجها، فنحن لا نعرف ماذا جرى في الفصل الثانـي من فصول الروايـة، لكننا نلاحظ أن الأحـداث تتوالى في ظل صراعٍ هائجٍ تعيشـه «سُـهى» في داخلها، ويبدو لي أنها كانت تريد إنهاء حياتها مع زوجها على نحوٍ مأسوي أو تراجيدي عندما لجأت إلى اسـتفزازه بالطريقـة التي صورها الفصـل الثالث.. أما

الخيانــة، فذلـك فــي غاية الشــناعة، يبدو أن «سُــهى» وصلت إلى مرحــلة اليأس المطلق، وحقيقة يا «ســعيد» أنا بــدأت أرثى لحالة هذه المرأة التي تســمَّى «سُــهى» في الرواية، أجد هزيمة كبرى في داخلهــا، وعندمــا تُهزم المرأة فــي داخلها، تصبــح ضعيفة، وترى فــي الشــر أحيانًا ســبيلًا للخلاص حتى لــو كانت نهايتــه كارثية.. كان ذهــاب «سُــهى» إلى الرذيلــة طريقة منها للخــلاص ليس من زوجها فقط، بل ومن سمعتها وشرفها ووجودها وأنوثتها وكرامة جسدها، أي أنها أخذت على عاتقها تدمير وجودها بالكامل.

- أليست هذه سادية متطرِّفة أو حالة مرضية يا «مريم»؟

- قــد تكــون، لكن نمــوذج «سُــهى» تمــادى كثيــرًا، وكمــا صوَّرها الكاتــب، أقصد «مرهون»، في تدمير الــذات الأنثوية أكثر، وعلى نحــوٍ فاضحٍ، فهي لم تكتفِ بعشــيقٍ واحدٍ بل أكثر، والمصيبة هي جمعت على جسدها عهر النقيضين معًا لتذهب إلى أقصى خلاعة ممكنة.

- أنــا وجــدت يــا «مريــم» أن «سُــهى»، ورغــم أنها كانت ســكرانة، تتحدَّث عن الوطن، والحقيقة كانت فكرة جميلة تلك التي ربطت فيهــا بين الجســد والوطن أو صيَّرت جســدها وطنًــا يتناوب على إهانته ضابط الدورية والإرهابي معًا، وربما غيرهما، الله أعلم!

- أقـول لك يا «سـعيد»، إن الفِقـرات التي علَّمت لـي عليها بالخط الأحمـر، تضم تسـريدًا مهمًّا عن شـخصية «سُـهى» فـي الرواية، فالهزيمـة لديهـا هي هزيمة وطـن؛ الوطن الذي غلبتـه الحروب، والحصار الاقتصادي، وصور القتل اليومية في الشـوارع، وصور الاغتصاب للنسـاء، بل وتحويل الجسد الأنثوي إلى جسد مُفخخ بالقنابـل القاتلـة، كل هـذه الفظاعات جعلت من «سُـهى» الرواية أنموذجًـا للمرأة المهزومة في وطننا، جعلتها عُرضة لهزيمة كبرى بحيث صارت «سُـهى» نفسـها تقرأ جسـدها كوطن أنثوي مشـاع يمكن لأيٍّ من الناس العبث به؛ غزاة، قتلة، مفخخِّون، سماسـرة، سـرَّاق، مفسـدون، عهَّار، مروجو فجور، مغتصبو فتيات وأطفال صغـار، عابثـون بالمال العـام، وغير ذلـك مما نعرفـه جميعًا عن هـذه النماذج البشـرية المتوحشـة التـي طلعت علينـا بهمجية من جحور الشـر لتنقـضَّ على براءتنـا، وتحيلنـا إلى هشـيمٍ معدومٍ. وأريدُ أن أضيف شـيئًا آخر، إذا تلاحظ أن «سُـهى» ذكرت رئيسـنا الفـار بسـخرية، وأنـت تعرف أن «سُـهى» عاشـت ريعان شـبابها فـي الثمانينيات علـى وقع المدافـع والصواريخ، وكانت تشـاهد جثث الشـهداء المحمولة على سـيارات الأجـرة، وانقطاع الطاقة الكهربائيـة، ومشـكلات أخرى كثيـرة كانت نتاجًـا لتلك الحرب المدمِّـرة، كمـا أنها عاشـت ليـس بعيدًا عـن وقع طبـول الحرب

الكونيـة القـذرة التي مـرَّت على بلادنـا عـام 1991، والأفظع من ذلك، أنها عاشـت سـنوات الحصـار والجـوع، واهتـراء الحياة، وفساد التعليم، وشيوع الرشوة، ومن ثم جاءت الحرب الأمريكية الأخيرة لتضرم النار في حطامنا.. «سُهى» نتاج لكل تلك الظروف المبغوضة..

- كأنّكِ يا «مريم» تريدين القول إن «سُهى» كانت ضحية، ولكن إذا كانت ضحية فلماذا ابتدعت كل هذه القصَّة؟

- إذا كنَّا نريد قراءة المتخيَّل في ضوء واقع موضوعي ما، فأقول لك نعم، كانت «سُـهى» ضحية بحسـب المـكان والزمان والأحداث المسـرودة في الرواية، والمشـكلة أننا لا نملك الفصل الثاني من فصولها لكي نتابع تطوُّر الأحداث في مسـاراتها السـردية، ونقف عند بداياتها، فـ «النَّص مقطوع»، كما كان يقول أحد أسـاتذتنا في الجامعة الذي درَّسنا تحليل النصوص الأدبية، هل تذكره؟

- نعم أذكره.

- أمـا موضوع القصَّـة، فأقول لك نعـم، كانت «سُـهى» تحتاج إلى قصَّة من هـذا النوع، قصَّة الهروب من الحيـاة الزوجية والارتماء فـي أحضان أناس آخرين للأسـف كانـوا نماذج سـيئة.. المرأةُ يا «سـعيد» لا تجد نفسها إلا باختلاق القصص والحكايات لتحقيق غاياتهـا وأحيانًـا للتعبير عن ذاتها.. ولو قـرأت تاريخ الصراع بين

العمَّة والكَنَّة ستجد كل واحدة منهما تختلق القصص والحكايات للسيطرة على الأخرى أو للدفاع عن نواياها، وتراني لا أبالغ عندما أقول لك يا «سعيد» إن إحساس المرأة بوجودها لا يتضح أحيانًا إلا بقصَّةٍ وبحكايةٍ، وللأسف «سُهى» في الرواية، و«نهى» في الواقع، كلتاهما، اختارتا أسوأ أشكال القصص؛ قصص اللجوء إلى الرذيلة في إيذاء الذات والغير بالعنف الجسدي والدموي لإنهاء حياتهما.. من ناحية أخرى، أنا أعتقد أن لـ «سُهى» في الرواية، كما لـ «نهى» في الواقع، وجعهما الخاص بهما الذي انحنيتا له كما انحنى له «رشيد» في الرواية و«مرهون» في الواقع، أردتُ أن أترك ذلك لك لتحلل العلاقة بين الواقع والمتخيَّل، لكنني أُضيف بأن «سُهى» حوَّلت الخصب الذي هو شأن المرأة ككائن يجدِّد الحياة والوجود إلى جدب أعمى لتقترن التضحية بالتشظية الهالكة، وتلك خسارة كبيرة.

- لا بأس، هذا تحليل عميق.. أراكِ اليوم قارئة محترفة لهذين النَّصين، أقترح عليكِ أن تكتبي بعض المقالات النقدية في الصحف والمجلات، ولكن لا بُدَّ من الربط بين «سُهى» في الرواية، و«نهى» في حياة «مرهون».

- هذا ما أتركه لك يا «سعيد»، أيها القارئ المحترف، لاسيما وأنت الأقرب إلى «مرهون» فهو صديق عمرك، ولك، وكما ذكرتُ

سابقًا، أن تقارب بين واقع النص المتخيَّل كما عاشه «رشيد» مع «سُهى»، وواقع نص الحياة كما عاشه «مرهون» مع «نهى».

- بوركتِ أيتها القارئة المحترفة.. ولكن أريد أن أسألكِ «مريوم» عن شيءٍ يبدو مهمًّا لي؛ ففي خلال وجودك مع أم «مرهون»، هل حصلتِ على معلومات عن علاقة «مرهون» بـ«نهى» أو العكس؟

- كثيرة هي المعلومات، منها أن «نهى» لم تكن تحترم «مرهون» ولا والدته، كانت تعاملهما بلا مبالاة، بل وبسخريةٍ أيضًا، كانت «نهى» تقذعهما معًا بطريقة قبيحة من دون أن تخز حياءها لكي يستيقظ، ولو لمرَّة واحدة، تقول أم «مرهون»: إن «نهى» كانت امرأة غريبة الأطوار، حامضة الطينة، لا تحترم أحدًا، حتى والدتها لا تحترمها، لا تمدُّ يدها في تنظيف البيت أو الطبخ، غالبًا ما تترك «مرهون» ينام وحيدًا.. وفي بداية زواجهما كان «مرهون» يضغط على «نهى» لكي تقرأ الكتب والمجلات الثقافية، كانت في البداية تقرأ لكن ذلك لم يستمر طويلًا، كانت تتناقش أحيانًا مع «مرهون»، لكنها تطرح ذلك بسخرية في غالب الأمر، وكانت تتناول أدوية متنوِّعة، منها حبوب مهدِّئة، وتردِّد دائمًا مقولتها: متى يأتي الفرج؟، ولم أكُن أعرف مَنْ هو؟ وما هو الفرج الذي تنتظره؟ فهل هناك فرج للمرأة أكثر من أن تتزوج وتعيش تحت خيمة رجل يُطعمها ويحفظ شرفها؟

تنهدت «مريم» وكأنها تستعيد مرارة أم «مرهون» وهي تحكي لها، ثم واصلت قائلة:

- كان «مرهون» يريد منها طفلًا، وكانت تدَّعي أنها من العواقر، لكن ذلك غير صحيح بحسب قول والدة المرحوم، والتي عملت المستحيل من أجل إقناعها لكي تحبل من ولدها، وكانت تعدها في بداية الأمر خيرًا وتخلف ذلك فعلًا في مرحلة تالية. «نُهى» امرأة مخلوقة لكي تكون ساخطة على كل شيء، ولم تكن تفكر في التصالح مع الحياة والناس، ومع زوجها، ومع نفسها حتى. وبين الحين والآخر، كانت والدة «مرهون» تسمع صراخًا بينهما في غرفة نومهما ليلًا، بل وفي كل ليلة يدخلان إليها، وسألته والدته، ولأكثر من مرَّة، عن سبب العراك بينهما فكان يقول لها: إن «نهى» لا تريد أن تنام إلى جانبي، بمعنى أنها لا تريد أن يضاجعها أو يمارس الجنس معها.. وواضح أنها لا تريد أن تحبل منه، حتى إنني سألت أم «مرهون» فيما إذا كان ولدها يعاني من مرضٍ ما في جهازه العضوي، فأخبرتني نفيًا.

صمتت «مريم» قليلًا وكأنها تتذكر شيئًا كادت تنساه، ثم قالت:

- كانت أم «مرهون» تقول لي: إن «نهى» تجري اتصالات كثيرة عبر موبايلها، في الصباح وفي المساء وفي الليل، ليس مع أمها طبعًا، إنما مع آخرين وأغلبهم من الرجال.. بل وأوضحت لي وهي

دامعـة العينين أن بعض النســاء ممن يجاورنها سـكنًا أخبرنها بأن كنتها «نهى» تركب في ســيارة وتعود لتنزل من أخرى بعد ساعتين أو أكثـر، وفـي هذا الكلام الذي كان يجـرح والدة المرحوم معنى وألف معنى، واللبيب تكفيه الإشارة.

- ما هو؟

- يبدو لي، وليسـامحني البارئ على ما أقول، أن «نهى» كانت مَذِرَة وفاسـدة أخلاقيًّا قبـل زواجها من «مرهون»، ربي سـامحني على هـذا الـكلام.. وبعـد زواجهـا منه مضت فـي الطريق نفسـه، وإذا ربطتَ يا «سـعيد» اسـتنتاجي هـذا مع كلام «محمـود»، جار بيت أهل «نهى»، الذي أخبرك به سـابقًا، فيمكن أن تتضح لك الصورة أكثـر وأكثر.. لكن هـذا لا يعنينا أبدًا يا «سـعيد»؛ المهم عندك هو أن تجـد فصلي الروايـة المفقودين لتدفعها إلى الناشـر كاملة، أما أنـا فعليَّ الحفـاظ على حياة أم «مرهـون» وخدمتها، وأرجوك أن تـدع الماضي للماضي.. لقد فقدتَ صديق عمرك، بل فقدت أعز الأصدقـاء على نفسـك، أخذه المـوت منك، ومـن والدته، ومن «نهـى»، ومن عالم الإبـداع برمته.. كان «مرهـون» روحًا ضائعة، كما قال «ماريو بارجاس يوسـا» في إحدى رواياته، وعندما رحل «مرهون» إلى غيابه، أصبحت روحه حائرة أكثر، وعلينا التخفيف من حيرته تلك لكي يتكرى في قبره مرتاحًا.

- هذه فكرة جيدة يا «مريوم»، أنتِ امرأة رائعة، هل تريدين الذهاب إلى بيت أم «مرهون»؟

- نعم، ولكن لا بُدَّ أن أشكرك يا «سعيد» على ليل أمس، كنتَ رائعًا، لقد منحتني متعة آسرة.. وسامحني أنني تسببت في تورم شفتيك.. كنت متطرِّفة في شبقي معك.. ولكن من دون مفخخات، ولا عبوات ناسفة.. كانت حرائقي ملتهبة إلى أبعد مما تتصوَّر.. ولكنني أعدك يا «سعيد»، بأنني، وبُعيد ولادتي لابني، سأعامل شفتيك الوفيتين برفق وحنان بل وأمومة حتى، أما مع ما عداهما، فسأكون أكثر جنونًا.. هذا وعد، ووعد الحُر دين كما يُقال..

- مثل ماذا؟

- أقصد الأشياء الأخرى..

- مثل ماذا؟ أوضحي.

- لا تكن طماعًا يا فحلي الوديع..

36

عندما أوصلت «مريم» إلى بيت أم «مرهون»، عدتُ إلى منزلي لأعيش طقوس وحدتي والمساء قد خيم على المكان، لكنها «مريم» عادت إلى ذاكرتي مرَّة أخرى، لقد أدهشتني زوجتي هذه عندما كانت الأفكار التحليلية تتدفَّق بسلاسة من لسانها العذب وهي تتكلَّم عما قرأته في الرواية، وتحديدًا عن ملابسات شخصية «سُهى» في الرواية، هل تمتلك «مريم» كل هذه الإمكانية؟ أم أن ليلة الغرام الفائتة، التي أمضيناها معًا، هي التي فتحت قريحتها على تحليل شخصية «سُهى» في الرواية؟ أم أن الميول الأنثوية لعبت دورها في تحليل شخصية هذه الـ «سهى»؟

أسئلة عديدة باتت تضغط على تفكيري وأنا أجالس حديقة منزلنا من دون ضوء حيث الظلام سيد اللحظة بانتظار رحمة أن تعود الطاقة الكهربائية مرَّة أخرى، يا لبؤس حياتنا!

لا أريد التمسُّك بفكرة الضحية، أو بالسؤال: مَنْ هو الضحية؟ «مرهون» أم «نهى»؟ فهذا شأن القراء الذين سيُطالعون الرواية

في حال نشرها، و«مريم» قارئة من القراء الذين لهم حرية تأويل شخصية «سُهى» في الرواية كما يحلو لهم، فذلك شأنهم.. مرتجاي هو الحصول على فصلي الرواية المفقودين أو المسروقين، ولا أدري بأية وسيلة أضغط على «نهى» لكي تعيد لي الفصلين، الثاني والخامس، هل أرسل لها أحد الأشخاص، امرأة أو رجلًا، لكي يقنعها بإعادة الفصلين؟

كلا، هذه المرأة متعجرفة، ولا يمكن التعامل معها برفق، ولكن هل المال يمكن أن يقنعها؟ من أين لي المال؟ ولا حتى أيَّة مؤسسة مستعدة لدفع مبلغ كرشوة لزوجة روائي سرقت فصلين من روايته، يا لسخرية الأقدار! هل أقترح على وزارة الثقافة شراء مكتبة «مرهون» ودفع المبلغ لـ «نهى» كي تعيد الفصلين؟

كلا، كلا، قد تفعلها الوزارة لشراء مكتبة «مرهون»، ولكن لا أريدُ أن يذهب المبلغ إلى «نهى»، أريده لوالدته المسكينة، فهي أولى به.

هذه مجرَّد فكرة، رغم أن «نهى» إذا عرفت شيئًا عن هذا الموضوع ستطالب بالمبلغ كونها أرملة «مرهون»، الموضوع شائك جدًّا، ولكن لا داعي لكل هذه المتاهة، فالأمر سيتم حسمه في القضاء، وذلك أفضل للجميع..

لمع في ذهني أحد الأسئلة: هل تسلَّم «أبو نادية» بلاغًا من ضابط التحقيق للمثول كشاهد؟ «يا للهول! من الضروري الاتصال بالمحامي عمَّار القاضي». قلتُ ذلك.

اتصلت به، لكنه لم يرد..

ما زال الظلام قابضًا على اللحظة برمتها، هذه مشكلة لا مهرب لي من معالجتها، لا بُدَّ من شراء الكهرباء من أصحاب الطاقة الكهربائية الأهلية.. ذلك يتطلَّب مالًا، ولمَ لا؟

لا مندوحة لي عن تخصيص بعض المال من راتبي، ولا بُدَّ من التخلي عن مصروفات معينة لهذا الغرض، لن أشتري كتبًا بعد الآن! بل لا مناص من تقليل عدد السجائر الذي أنفث فيه همي من الصباح حتى المساء، خصوصًا أنني بانتظار طفل طري العود لا يجب أن يشم رائحة سجائر في المنزل، تلك مشكلة.. ولا مفر لي أيضًا من البحث عن أيِّ فكرة من شأنها تقليل المصروفات اليومية لكي أتمكَّن من دفع المال لشراء الكهرباء..

غدت حياتنا أكثر تعقيدًا من ذي قبل.. غدونا فريسة لأقدار جديدة علينا..

رنَّ هاتفي، كان المحامي، أخبرته عن موضوع «أبو نادية»، فقال لي: «نعم، كل شيء جرى بحسب الأصول، وأبو نادية تم تبليغه

بموعد حضور الجلسة القادمة»، وأضاف: «فقط عليك يا سعيد أن تذهب إليه غدًا لكي يكون مستعدًّا نفسيًّا للموضوع حتى يحضر الجلسة».

شكرته، وكنت في الحقيقة لا أجد لديَّ الاستعداد النفسي الكافي لقطع مسافة طويلة حتى أصل إلى بيت «أبو نادية» وهو في أطراف العاصمة.

ولذلك، راودتني فكرة الاتصال به، لكنني لم أجد في هذه الفكرة قدرًا من اللياقة، لا أريدُ أن أجعل المحامي يشعر بأنني تململت من الموضوع، لا أريدُ إحباط حماسة الآخرين، لا بُدَّ من الذهاب إلى هناك مهما كان الأمر شاقًّا ومتعبًا..

في المساء، ووسط الظلام الدامس، بدا القمر المنير بهيَّ الصورة، كان الصمت سيدًا لولا سماع أصوات رصاص متقاذف من رشاشات ومسدسات القوات الأمريكية أو من المسلحين هنا وهناك، بعض أصوات الرصاص يبدو بعيدًا، وغيره كان الأقرب إلى مسمعي..

موجة حزن عارمة دهمت عموم كياني؛ فإلى متى تبقى مساءاتنا كئيبة؟ وإلى متى تبقى أيامنا غامة وحبلى بالموت المجاني؟

شعرت أن سريري هو الكائن الذي يمنحني ضوءًا حميمًا إذا ما ارتميت عليه نائمًا..

37

كانت رحلتي إلى بيت «أبو نادية» شاقة جدًّا، حرقت أربع ساعات ونصف الساعة حتى وصلت إليه، وأخبرته عن الموضوع، فوجدته مرحبًا به، بل وأبدى أسفه على ما جرى للمرحوم، وأكد لي يقينه من أن زوجة «مرهون» هي التي سرقت فصلي الرواية الضائعين، وأضاف قائلًا:

- خبرتي العملية في المستشفيات علَّمتني مَنْ هو الصادق في زيارة أحد المرضى ومَنْ هو المخادع..

وأضاف موضحًا:

- عندما جاءت تلك المرأة لم أجد شيئًا من الرحمة في عينيها، كان الشرر يقاذفهما، كانت مرتبكة من وجودي، وكانت تعتقد أن المبلغ الذي دسته بين أصابعي كافيًا لرشوتي أو إسكاتي أو تملُّصي من المسؤولية.. يا أستاذ «سعيد»، أنا الآن أكثر حزمًا وإصرارًا على الذهاب إلى مركز الشرطة للإدلاء بشهادتي حول هذا الموضوع لأنها لم تخدع زوجها المريض فقط وإنما

خدعتني أنا أيضًا، استغفلتني وضحكت على رجل عمره من عمر والدها، وأنا سأطالب بحقي عبْر القضاء؛ حقي في أن هذه المرأة استغفلتني وسرقت أوراقًا من مريضٍ كان يُعالج في غرفة أنا كنتُ أحد المسؤولين عنها.. عُد يا أستاذ «سعيد» إلى بيتك مرتاح الضمير، وغدًا سأكون هناك في الموعد المحدَّد.

لقد بعث كلام «أبو نادية» في نفسي الراحة والأمل، بل وأزال عني بعض قلقي وأنا في طريقي إلى بيته.. بدا رجلًا شجاعًا بكل معنى الكلمة، بات يشعر بالمهانة جرَّاء ما فعلت به «نهى» البغيضة، وكلامه الذي سمعته منه شدَّني أكثر لحضور جلسة التحقيق القادمة، لكن نصائح المحامي تجعلني مُجبرًا على الالتزام بها، أجلس في بيتي وأترقَّب من بُعد ما سوف يجري هناك، تلك هي الطريقة المثلى لكي أتجنَّب العنف المحتمل الذي يمكن أن يكيلاه لي ضابط الدورية والإرهابي، وربما غيرهما من عشاق السيدة اللعينة، وكذلك أتجنَّب نواياها الإجرامية..

وصلتُ إلى منزلي من دون أي شعور بالتعب، رغم أنني أمضيت ثلاث ساعات ونصف الساعة في طريق العودة..

38

في صباح يوم الأحد، صباح جلسة التحقيق، بدوت متحمسًا لسماع أخبار ما سيجري هناك، شحنت بطارية موبايلي جيدًا، نظرت إلى الساعة الحائطية في الصالة فكانت الثامنة بينما الجلسة في العاشرة..

ضممتُ فصول الرواية في ملفٍّ واحدٍ رغم شكّي في أن «نهى» سيستيقظ ضميرها في لحظة مُشرقة ما وتجلب بقية الفصول معها إلى جلسة التحقيق..

اتصلتُ بـ«مريم»، أخبرتها باستعدادي لسماع أخبار الجلسة، لكنها خيبتني قائلة:

- لا تتفاءل يا «سعيد»، لا توجد مؤشرات على إرجاع «نهى» لفصول الرواية المفقودة، هذا إحساسي بالموضوع.

- أنتِ متشائمة جدًّا يا «مريوم».

- وأنتَ متفائل جدًّا يا حبيبي، «نهى» مجرمة حقيقية، امرأة موغلة في الإجرام، لقد تحصَّلتُ من أم «مرهون» على معلومات هائلة

عنها؛ لذلك، أرجوك يا «سعيد» لا تبدو متفائلاً كثيرًا هذه المرَّة، ولكن لديَّ إحساس بأن اليوم ستُحسم الأمور..

- طيب، ننتظر ما سيكون، وأتصل بكِ لاحقًا، تحياتي إلى أم «مرهون»..

عدتُ إلى أحزاني مرَّة أخرى..

«دائمًا، ومن جديد، تعود الكآبة..»، هذا ما قاله «جورج تراكل»..

أحيانًا أكره واقعية «مريم» فيما تقول وتفكر، ولكن ما هي سوى ساعتين ونسمع النتائج.. بعثت رسالة إلى المحامي حول مصير مكتبة «مرهون»، وفيما إذا كانت «نهى» ستوافق على إهدائها إلى مكتبة الاتحاد العام للأدباء أم لا؟

بعد عشر دقائق، كتب لي رسالة جاء فيها: «فكرة جيدة، ولكنها تتوقَّف على ما سيجري في جلسة اليوم.. شكرًا لك أخ سعيد».

مضى قلقي باتجاهات عدَّة، بدا كلام «مريم» ممزقًا لآمالي، لكن رسالة المحامي بعثت في نفسي السرور، اتصلتُ بالصحافية «وفاء السامي» لأتأكد من حضورها، وكذلك الصحافي الذي يعمل في جريدة «الصباح»، لكن رسالة جاءتني من «حسن المزهون» كتب فيها أنه في بغداد، وهو متوجِّه إلى مركز الشرطة لحضور

التحقيق. وقال لي أيضًا إنه، وبعد الانتهاء من الجلسة، سيأتي إلى بيتي كضيفٍ.

كانت فكرة جميلة أن ألتقي «حسن المزهون» في مثل هذا اليوم المتوتر، خصوصًا أن ضيفي أبدى حماسًا لزيارتي..

حرقتُ ما تبقى من الوقت في إعداد الشاي، بدأت أشعر بأنني سأكون الطاووس الأسطوري لو حصلتُ على فصلي الرواية من هذه الزوجة الماكرة..

طوبى لك يا «سعيد» لو نُشرت الرواية كاملة..

بدأت أتخيَّل ما ستنشره صحف الغد:

«القضاء يستعيد فصلي رواية الشاكر المفقودين»

«أرملة تعترف بأنها سرقت فصلين من آخر رواية كتبها زوجها قبل رحيله».

«شاهد وحيد ينقذ رواية من الضياع»

سيقول الناس: «إن القضاء في بلادنا عظيم الشأن.. وإنه ما ضاع حق وراءه مُطالب».

ربما سيفجِّر الإرهابي مركز الشرطة الذي يجري فيه البحث الجنائي..

ولا أدري ما الذي يمكن أن يفعله ضابط الدورية في تلك الحالة؟

ربما يعتقل الإرهابي أو ربما الإرهابي يفجِّر نفسه بحزام ناسفٍ أمام الضابط ويقتله أو قد يبقيان كأصدقاء ليتقاسما جسداً السيدة «سُهى» / «نهى» باعتباره وطنهما البديل بعد ضياع الوطن/ الوطن..

لا أعلم، فكل التوقُّعات ممكنة في بلد تقهقرت حياته إلى قرون مظلمة على نحو سريالي..

أسمع صوت انفجار هائل يرُج العاصمة على بكرة أبيها..

توجَّهت نحو الصالة، أبحث عن مذياعي صغير الحجم أو «المذياع الدودة» كما تسميه زوجتي «مريم».. ما زال الوقت دون العاشرة، سأعرف حتمًا أين وقع الانفجار الإجرامي، وسأعرف عدد القتلى والجرحى، وغير ذلك من الخسائر غير البشرية.

جاءت نشرة العاشرة صباحًا من دون أي خبر عن الانفجار، اتصلت بـ«مريم»، قالت لي: «بحسب أقوال الناس فإن الانفجار وقع في أحد شوارع منطقة الكرادة الشرقية، أما كم هو عدد الموتى والجرحى فيمكن أن تقدِّره أنت».

تذكرت أنني يوم أمس بدأت أفكر في شراء الطاقة الكهربائية من صاحب المولِّدة الكهربائية الضخمة، فخرجت للذهاب إليه،

وعندما وصلتُ إلى محله الافتراضي، بدأ الرجل القصير جدًّا بعرض أسعاره للأمبير الواحد، فضلًا عن شراء «واير» بحسب المسافة التي تفصل بيتي عن مكان المولِّدة العتيدة، وكذلك شراء مفتاح تحكُّم، وعندما حسبت المبلغ الكلي تبين لي أنني سأصرف ثلث راتبي الشهري لكي أحصل على إنارة منقطعة الحضور في منزلي، وافقت مجبرًا، ودفعتُ له جزءًا من المبلغ لحين شراء بقية العدَّة..

في طريق العودة إلى المنزل، سمعت بعض الناس يتحدَّثون عن عددٍ كبيرٍ من الموتى، وعددٍ أكبر من الجرحى في انفجار هذا الصباح.. كان أحد الشهداء من سكنة منطقتنا..

بينما كنت أهمُّ بالدخول إلى المنزل، رنَّ جرس هاتفي، كانت «وفاء السامي» تخبرني بأنها لم تستطع الوصول إلى مركز الشرطة بسبب انفجار مهول وقع هذا الصباح..

سمعت صوت انفجار ثانٍ تهادى إليَّ من بعيد.. ومن ثم دوى الثالث الذي جعل الأرض من تحتي تترنَّح..

يا إلهي، ماذا يجري هذا اليوم؟

اتصلتُ بالصحافي الذي يعمل في جريدة «الصباح»، لكنه لم يرد..

فكرت في أن أتصل بالشاهد «أبو نادية»، إلا أنني تريثت قليلًا، فربما يكون في جلسة التحقيق..

اتصلت «مريم»، وأخبرتني بأن الانفجارين أحدهما وقع في جانب الكرخ والآخر في جانب الرصافة، وأن أحدهما نفذته امرأة، فقلت لها: «هذا معتاد؛ فالعنف الدموي في وطننا لا يهمه مَنْ يقتل إنما مَنْ يموت؟».

اتصل «أبو نادية»، وأخبرني بأن المحامي ورئيس اتحاد الأدباء وشخصًا آخر اسمه «حسن المزهون» وبعض الصحافيين حضروا إلى مركز الشرطة مبكِّرًا، لكنَّ «نهى» لم تحضر، ولذلك أرجأ ضابط التحقيق الجلسة إلى يوم الأحد التالي..

دبَّت الخيبة في نفسي، واشتعلت الحسرات: «أما كان لك يا نهى أن تحضري اليوم إلى جلسة التحقيق لتنتهي حكاية الرواية، لعنة الله عليكِ وعلى القتلة الأوغاد سفهاء الأحلام.. حثاء الأسنان».

اتصل «حسن المزهون» ليخبرني بأنه في طريقه إلى بيتي، دخلت مطبخي لإعداد وجبة غداء للضيف القادم من مدينة الحلة..

تبدَّدت آمالي، كم كنتُ متحمسًا هذا الصباح لسماع خبرٍ حاسمٍ بشأن فصول الرواية، ولكن..

قضيت أكثر من أربع ساعات حتى وصل «حسن»..

رحَّبت به..

بدت ملامح وجهه دالة على تعبٍ قاهرٍ طال روحه قبل بدنه، لكنه، وبينما كان يجلس على أريكة في الحديقة، بادرني قائلًا:

- ما يجري لنا هو الجحيم يا «سعيد»، هناك تفجيرات في مدينة الحلة، ولكنَّ التفجيرات في العاصمة أكثر عددًا وفداحة، تبدو العاصمة مدينة خربة، هرمة، مدينة يحتلها الشيطان، ويعبث بها على هوى جنونه..

- هذا قدرنا يا أخي «حسن»، منذ فترة وأنا لا أذهب إلى العمل في الوزارة، فكل لحظة ترى الموت أمامك، هؤلاء يتفننون في قتلنا وإبادتنا بشكل منهجي ومنظم.. لندخل إلى الصالة، وسامحني أنني أعددتُ لك بنفسي وجبة غداء بسيطة لأن زوجتي، وكما أخبرتك، عند أم «مرهون»..

- لا بأس عزيزي «سعيد»، ما عاد للطعام من لذَّة في حياتنا لكن لقاءنا هو اللذيذ..

جلسنا في الصالة، يجمعنا الطعام الذي «لم تعد له لذَّة» كما يقول «حسن المزهون»، كان صوت المذياع يتهيأ لنشرة الأخبار، وبعد لحظات قرأ المذيع بصوت يذبحه الحزن ما نصه: «سقوط

عشرات القتلى وأكثر من مائتي جريح في ثلاثة انفجارات بسيارات مفخخة هزَّت أطراف العاصمة ووسطها صباح اليوم».

ومن ثم دخل المذيع إلى تفاصيل النشرة، مؤكِّدًا ما أخبرتني به «مريم» من أن امرأة نفذَّت أحد التفجيرات، وهو التفجير الثالث، وكان أحد قادة القوات الأمنية قد قال عبر النشرة: «إن أجزاء من جسم الإرهابية التي نفذت التفجير بسيارة مفخخة قد وجدت متلاشية ومتفحمة الدماء بعد إخماد النيران التي اندلعت بسبب التفجير».

- ماذا تقول يا «حسن» عن ظاهرة النساء الانتحاريات؟

- هي ظاهرة ليست جديدة، أتذكر أن الجماعات المتطرفة في الشيشان عملت بهذا الأسلوب، كانت تدفع بالنساء المضحوك عليهن إلى الموت بهذه الطريقة تحت عناوين الجهاد وما أشبه من الوعود الزائفة..

- تفخيخ المرأة يعني تفخيخ الجسد الأنثوي الذي خلقه الله للجمال والحب والإنجاب، وها هو يصبح اليوم وسيلة رخيصة لتدمير كيانه والآخرين معًا، أيَّة مهزلة تعيشها البشرية؟ أيَّة مهزلة نعيشها يا «حسن»؟

- ما نعيشه هو مهزلة المهازل يا «سعيد»، ربما القادم سيكون أسوأ وأفظع وأردأ، فكل المؤشرات توحي بأن حياتنا تسير إلى الهاوية، خصوصًا أننا بتنا نسمع عن حرب طائفية تنذر بجرائرها!

ونحن نلملم صحون مائدتنا البسيطة، رنَّ جرس هاتفي الجوال، لم أرد بانتظار أن نجلس، أنا و«حسن»، في الحديقة..

ظلَّ جرس هاتفي يرنُّ لأكثر من مرَّة، وأخيرًا أجبت، فكان «محمود»، جار بيت أم «نهى»:

- أهلًا «محمود»، كيف حالك؟

- عزيزي «سعيد»، قبل عشر دقائق سمعت أصوات نواحٍ وبكاءٍ في بيت أم «نهى»، و..

- هل مات أحد من أقربائهم في تفجيرات اليوم؟

- والدة «نهى» هي التي كانت تبكي وتنوح، وهناك كلام أن «نهى» نفسها هي التي ماتت!

- يا رجل! ماذا تقول يا رجل.. هل أنت متأكِّد؟

- تراني أنتظر الخبر المؤكد لكي أتصل بك.. تحياتي..

- شكرًا لك يا أخي «محمود»..

- هل سمعت يا «حسن»، «محمود»، وهو جار لبيت أم «نهى»، يقول: «إن نهى قد تكون ماتت..».

- ماتت؟! كيف ذلك؟ كيف ماتت؟ اللعنة، ماتت الآن؟ ماذا نفعل يا «سعيد»، فتلك كارثة؟

- دعني أتصل بـ «مريم»..

أعلمتُ «مريم» بالخبر الفجيعة، وطلبت منها إعلام والدة «مرهون» به، وإقناعها بأن تتصل بأم «نهى» للوقوف على حقيقة ما سمعناه.

صار القلق سيدنا، أنا و«حسن»: «كيف تموتين الآن؟»

سأل «حسن»، وأضاف قائلًا: «يا سعيد، الأفضل لنا جميعًا الذهاب إلى بيت أهل نهى».

رنَّ هاتفي، كان الاتصال من «محمود» الذي أكَّد لي موت «نهى»، وأضاف قائلًا:

- إنها طريقة موت بشعة يا «سعيد»، لقد نفذَّت «نهى» أحد التفجيرات التي وقعت صباح هذا اليوم بالعاصمة، والأخبار التي ذكرت أن امرأة انتحارية نفذت التفجير الإرهابي صحيحة، وكانت «نهى» هي التي نفذت التفجير اللعين..

- كيف ذلك يا رجل؟ كيف؟

- لا أعرف، إذا أردت المزيد من الأخبار فعليك أن تأتي بنفسك إلى بيت أهل «نهى» وتعرف ما جرى.

- أشكرك أستاذ «محمود»، سأفعل ذلك.. إلى اللقاء..

- نعـم يا «حسـن»، ما سـمعناه كان حقيقيًّا، «نهى» هـي التي نفَّذت تفجيـر إحدى السيارات المفخخة صباح هـذا اليوم، الأفضل أن نذهب إلى هناك..

قاطعني «حسن» قائلًا:

- يا «سعيد»، قد يكون في الأمر خطورة عليك وعلى زوجتك، إنها عملية إرهابية، وقد يضيع جميعنا في ملابساتها؟

- كلا يـا صديقي، نحن وفي كل الأحوال مـن الضائعين أصلًا، هيَّا لنذهب إلى هناك، سـأتصل بـ «مريم» وأخبرهـا بالموضوع، هيا يا صديقي، أنتَ اليوم ضيفي، سـنذهب إلـى هناك ونعود معًا إلى هنا..

39

عندما وصلنا إلى بيت أهل «نهى»، كان الهدوء سيد المكان، لا بكاء ولا نواح، كل شيءٍ بدا هادئًا، رأيت «محمود» يقف عند باب داره، لوَّح لي بالدخول إلى بيت أم «نهى»..

طرقنا الباب لثلاث مرَّات حتى فتحت، كانت امرأة لا نعرفها، أخبرتها أم «مرهون» بأنها عمَّة «نهى» وأم زوجها المرحوم «مرهون»..

دلفنا جميعًا إلى صالة المنزل، وجدنا أم «نهى» متورِّمة الوجه، تلطمه كاتمة بكاءها، تتنهد صدمتها، حتى رفعت رأسها الذليل، ونظرت إلى وجه أم «مرهون»، قائلة:

- لقد ماتت «نهى»، لحقت بـ «مرهون»، ماتت بطريقةٍ شائنةٍ، لا أدري ماذا أفعل؟ لا أدري كيف سيراني الناس بعد ما فعلته ابنتي الملعونة بي وبكم، سوَّد الله وجهها؟ هل سيسامحونني وابنتي قاتلة لأبنائهم، مجرمة، إرهابية؟ يا رب أسألك الصبر.. يا رب الرحمة.. أسألك الرحمة والرأفة بي وليس بتلك المجرمة التي قتلت الناس..

- كيف عرفتِ يا خالة أن «نهى» هي التي فجَّرت السيارة المفخخة؟ سألت «مريم».

- أنا سمعت دوي الانفجارات صباح هذا اليوم، لم تكن «نهى» موجودة في البيت أصلًا، كنت مساء أمس قد تناولت دوائي وغططت في نومي.. وعندما استيقظت صباحا لم أجدها؛ لا في سريرها، ولا في أي مكان آخر داخل البيت.. وبعد ساعة على الانفجار الثالث، سمعت طرقًا على باب البيت، خرجتُ دون أن أجد أي شخص، بدلًا من ذلك، وجدت رسالة في مظروف أسمر اللون تحت فردة الباب، فتحت المظروف فوجدت فيه 300 دولار، وهذه الرسالة.

أخذ «حسن المزهون» الرسالة من يد أم «نهى»، وصار يقرأها بصوتٍ مسموع: «بسم الله الرحمن الرحيم.. كتب الله لابنتكم المجاهدة نهى ردَّامٍ مصطفى الشهادة في سبيل الله هذا النهار، وهي تذهب اليوم إلى جنَّة الرحمن الذي أحبَّها لأنها مؤمنة وصادقة في عهدها معه جلَّ شأنه.. إن أخت المجاهدين نهى، هي التي نفَّذت عملية جهادية صباح هذا اليوم لتنال من الخونة والعملاء والكافرين والمحتلين لبلاد المسلمين».

- كيف صارت «نهى» أختًا للمجاهدين؟ كيف؟ سألتْ أم «نهى» بصوتٍ ناحب الألم..

- البقاء لله يا أم «نهى».. قالت أم «مرهون».

- أنـا خائفة يـا أم «مرهون»، خائفة من الحكومـة، ومن الأمريكان، وخائفة جدًّا من أهالي الناس الذين ماتوا بالتفجير، ربما سيقتلونني أو يذبحونني أو يفجِّرون بيتي على رأسـي، هذه مصيبة، مصيبة يا أم «مرهون» سببتها لنا هذه البنت العاق..

- لن يقتلكِ أحد يا أم «نهى»، والأفضل أن تذهبي إلى قريبٍ لكِ في منطقةٍ أخرى حتى تهدأ النفوس..

أخذَنـا الصمت جميعًا، وبـدت الصدمة مؤثرة فينا، فوجدتُ من المناسـب الحديـث عن موضـوع الرواية، شـعرت بالحـرج بداية، لكنني لملمت شجاعتي في تلك اللحظة، وسألت أم «نهى»:

- أنـتِ تذكريـن قضيـة روايـة «مرهون»، هـل تعرفين أيـن وضعتْ «نهى» أوراق الرواية التي أخذتها من المستشفى؟

- يـا بنـي، «نهى» لم تأخذها فقط، إنما سـرقتها من «مرهون» عندما كان نائمًا في المستشـفى أو ربما ميتًا، لا أدري، وهي التي حرقتها بعد أن قطعتها، مزقتها وحرقتها أمامي، في حديقة المنزل الخلفية، وعندما سـألتها: لماذا تفعلين هذا بأوراق زوجكِ؟ قالت: مرهون يقول فيها إنني غير شريفة! لعنت تلك اللحظة، ولعنت اليوم الذي أنجبت فيه هذه البنت وجه النحس التي حوَّلت حياتي إلى جحيم وبؤس ونكد..

- عندما تتحوَّل امرأة إلى إرهابية قاتلة يعني أنها تدرَّبت على ذلك، ألم يلفت نظرك ذلك يا أم «نهى» من خلال سلوكها؟ سأل «حسن المزهون».

- يا بني، أنا لا سيطرة لي عليها، هذه البنت، ومنذ كانت صغيرة، متمرِّدة علينا جميعًا، كانت سببًا في موت والدها ومقتل شقيقها الوحيد الذي رزقنا الله به.. وكثيرًا ما كانت تزجرني وتهدِّدني بالقتل ذبحًا إذا ما اعترضت طريقها في موضوعٍ ما.. وفي الفترة الأخيرة صارت تصرفاتها غير معقولة أبدًا، خصوصًا بعد موت «مرهون»، كانت تغيب عن البيت لأسبوعٍ أو أكثر في كل مرَّة، وبدا لسانها لاذعًا أكثر من السابق، ولكن، ومهما فعلت «نهى» من سيئات، فهي تبقى امرأة لا أكثر، ضعيفة، تخدعها الكلمات، فكيف والجماعة المشؤومة تسميها «أخت المجاهدين»؟ من أين جاء هؤلاء؟ من أين جاءوا إلينا لعنة الله عليهم؟

- مَنْ هم الجماعة؟ سألتْ «مريم».

- لا أعرف، ولكنها عندما تتحدَّث بالهاتف، تقول الجماعة.. الجماعة، الجماعة.. لا أدري مَنْ هم الجماعة، أسأل لله الرحمة والغفران لها، يا رب سامحها، لقد قتلت عبادك، ودمَّرت عمرانك في الأرض، ولكل حي موت، ولكل جنب مضجع.. سامحني يا ألله.. سامحني يا رب.. يا رب..

40

خرجنا من بيت أم «نهى» خاسرين كل شيء: «مرهون»، و«نهى»، والروايـة، وأرواح الناس التي زهقت في الانفجار الثالث وغيره من الانفجارات، خسارات عدَّة في خسارة كبرى قضمتنا جميعنا..

كنَّـا صامتين والدهشـة تحفر فينـا اليأس ممَّا جرى وما سـمعناه مـن أم «نهى».. كنَّا نجلس في بيت أم «مرهـون» وصدمتنا بالمصير البائـس الـذي انتهت إليـه ابنتها تجعلنـا ندَّخر كلامنا إلـى حين غير مُسمَّى، كيف استدرجوكِ يا «نهى» إلى هاوية مخزية؟ كيف وجدوا الضعف فيكِ حتى تسـلَّقوا إليـه، وجعلوكِ تحبلين به لتلديه خلاصًا بلا أمل أو رجاء، كيف؟

41

في المساء، أخذتُ «المزهون» إلى منزلي، أمضينا بضع ساعات في المقهى، وغرقنا في أحاديث عن الثقافة والأدب، وعن المصير المأسوي لرواية «مرهون».. سألني «حسن» عن إمكانية نشر الرواية ناقصة الفصول، قلت له: «لا أدري، لا بُدَّ من استشارة رئيس اتحاد الأدباء.. وكذلك بعض المثقفين، والمتخصِّصين القانونيين، كل شيءٍ الآن هو ملك لوالدة مرهون كونها الوريث الأخير لكل ما تركه ولدها وزوجته نهى».

في صباح اليوم التالي، ودَّعت «حسن» عائدًا إلى مدينته الحلة، ووعدته بأنني سأزوِّده بأيِّ أخبارٍ أخرى حول الرواية..

إلى بيت أم «مرهون» أخذتني خطاي، اتفقت معها هناك على بيع مكتبة «مرهون» إلى وزارة الثقافة، وأخبرتها بأنني سأطلب من رئيس الاتحاد العام للأدباء والكتَّاب غلق ملف الدعوى القضائية المرفوعة ضد «نهى»، وسأتداول معه حول موضوع الرواية منقوصة الفصول..

اتصلت برئيس اتحاد الأدباء، وأخبرته بأن «نهى» ماتت من دون إعلامه بأنها انتحارية أو إرهابية أو مجاهدة، لا أريد تشويه سمعة «مرهون» وهو في قبره رغم أن رئيس الاتحاد سيعرف ذلك مستقبلًا، وطلبت منه مفاتحة وزير الثقافة حول إمكانية شراء مكتبة «مرهون»، خصوصًا أن الوزير هو أحد المثقفين اليساريين..

هاتفتُ «أبو نادية»، وأخبرته بأن «نهى» ماتت، فتأسَّف لهذا الخبر، واتصلتُ أيضًا بالمحامي، وأخبرته بكل ما جرى يوم أمس، خصوصًا موت «نهى» في عملية انتحارية لكي يغلق القضية رغم أنها ستطول في شعاب التحقيقات الجنائية والإجرائية؛ إذ يجب تقديم شهادة وفاة «نهى» لإسقاط الدعوى، ووعدته بذلك رغم تعقُّد الحالة ومخاطر ما يحيق بنا جرَّاءها في زمن الموت الرخيص..

في ظهيرة اليوم التالي، جرت الأمور بحسب ما أردنا؛ إذ أمر وزير الثقافة بشراء مكتبة «مرهون» مقابل خمسة آلاف دولار، وأمر أيضًا بطبع الأعمال الأدبية والنقدية الكاملة للراحل «مرهون الشاكر» على نفقة وزارة الثقافة، وكذلك أمر بتشكيل لجنة لدراسة إمكانية نشر رواية «مرهون» الأخيرة «ينحني الصابر للوجع» منقوصة الفصول ضمن الأعمال الكاملة..

هاتفت «حسن المزهون»، وأخبرته بكل هذه التطورات ففرح لذلك فرحًا هائلًا..

بعـد عشـرة أيـام، جـاءت لجنـة مـن وزارة الثقافـة إلـى بيت أم «مرهـون» لجـرد مكتبة ولدهـا الراحل، ووضع تركتـه من كتب في صناديـق خاصـة، ونقلها إلى مقر الـوزارة، واسـتلمت أم «مرهون» فيما بعد مبلغًا تعويضيًّا وهي تبكي رحيل المكتبة عن بيتها كما رحل ولدها «مرهون» قبلها إلى عالمه الأبدي..

توسَّـمت بـأم «مرهـون» خيرًا عندمـا طلبت منهـا أن تعيش معنا بانتظار ولادة «مرهون» الصغير فوافقت على ذلك بروح وسيمة..

42

بعد شهور، تم اغتيال الدكتور «أحمد الجبوري» في أثناء خروجه من منزله بمنطقة الغزالية غرب العاصمة.. وفي الفترة ذاتها هاجر المحامي «عمَّار القاضي» إلى وطن بديل.. وعاد «أبو نادية» إلى مسقط رأسه في مدينة تكريت بعد تهديدات متكررة بالتهجير المناطقي.. وبعد أن صار الانتقال بين حي وآخر محفوفًا بالمخاطر في بغداد، تجنَّبتُ الذهاب إلى عملي في الوزارة على نحو يومي مع ضمان معاشي الشهري.. وفي طريقه إلى بغداد العاصمة، نجا «حسن المزهون» من محاولة اختطاف بأعجوبة.

في أثناء كل ذلك، حلَّ «مرهون» الصغير ضيفًا ملائكيًّا بيننا، بدا طفلًا فاتن المحاسن، بهيَّ الثنايا، يشبه أمه «مريم» في أغلب ملامحها العابقة بالجمال باستثناء اللون العسلي المشع في عينيه النجلاوين..

بدت أم «مرهون» مسرورة بملاكنا الصغير وهي تضاحك فيه رائحة الأمل عندما يجالس حضنها مرَّة أو تضمُّه إلى صدرها مرَّاتٍ أخرى، وتناغيه بشغف ولهٍ لحفيدٍ أفنت عمرها من أجل ملاقاة

طلّتـه التي تذكرها بطفولة ولدهـا الفقيد «مرهون»، بل وبطفولة بقية أولادها الذين رحلوا قبلها تباعًا..

ربما سـيكون المشـهد أكثر دفئًا لو كانت والدتـي، رحمها الله، حاضرة بيننا، ربما سـتضفي على وجود حفيدها الأول شوق رؤيتها لكائن ملائكي يناغيها، وبلسان طري يهتف: جدتي.. جدتي!

43

بعد حين، أصدرت وزارة الثقافة الأعمال الكاملة لـ «مرهون الشاكر» بطبعة أنيقة تضم رواية «ينحني الصابر للوجع» بمتنها الحكائي المنقوص، حيث غياب الفصلين الثاني والخامس، وكانت أم «مرهون» الصغير، زوجتي، قد كتبت مقدِّمة لها باسمها الصريح، وهي المرَّة الأولى التي تظهر فيها مادَّة منشورة باسمها رغم نصيحتها لي سابقًا بضرورة نشر نصِّ الرواية من دون أيِّ مقدِّمةٍ له، إلَّا أنَّ الملابسات التي أحاطت بالنص، استدعت كتابة مقدِّمة تتحدَّث عن ظروف الرواية كوليد إبداعي أخير للكاتب الراحل «مرهون الشاكر».

أما أنا، «سعيد الدهان»، فظهر اسمي مرارًا في مقدِّمة زوجتي «مريم» للرواية، كما ورد اسمي كثيرًا في المقدِّمة العامَّة والطويلة للأعمال الكاملة التي كتبها ثلاثة من النقَّاد الكبار عن مشروع «مرهون الشاكر» الإبداعي في القصة والرواية.

* * *

قد تكون أحداث رواية «ينحني الصابر للوجع» انتهت بين موت وولادة!

ولكن، ما زال جميعنا ينحني للوجع..

ما زلنا ننحني لهاوية بلا ملامح..

ترانا اليوم، وفي الغد أيضًا..

سننحني..

وننحني..

ولا مفر..!

لأول مرَّة يتفق ضابط مع إرهابي على قضية واحدة، هي قضية اسمها جسدي، جسدي هو وطنهما الحقيقي، كلاهما يحرس جسدي بطريقته الخاصَّة كما يحرس كل منهما الوطن بطريقته الخاصَّة، قلت لكَ إن الوطن يريد مني أن أُضحِّي من أجله، أن أكون عاهرة، وهذه مسؤولية تاريخية، كما كان يقول رئيسنا الفَارُّ، أما أنتَ فيريد منك هذا الوطن أن تكون راضخًا ومنحنيًا حتى يرضى عنك، أنْ تكون المثقف الراضخ، ماذا أفعل لكَ، أنتَ لا تريد أن تكونَ راضخًا؛ لا لوطنك ولا لزوجتك، سُهى الفاجرة، كما تسمِّيها أنت بينك وبينك.

***

بين واقعٍ روائي، وخيالٍ واقعي، تدور أحداث هذه الرواية، التي ترصد الرحيل الأبدي للكاتب «مرهون الشاكر» إثر مرضٍ عضالٍ، وعبر رحلة البحث عن فصلين مفقودين من آخر رواياته، يرصد الكاتب آلام مثقفٍ مفجوعٍ بوطنٍ يتهاوى، وزوجةٍ وحبيبةٍ مزَّق جسدها صاروخ أمريكي هائج؛ وزوجة ثانية تمرَّدت على زوجها المفجوع بخيانتها له.. على خلفيةٍ مفخخةٍ، تحدث كل لحظةٍ في بغداد.. إنها رواية تستحق القراءة، ويمكن وصفها بأنها رواية «رواية»، أو رواية «السَّرد المفتون بذاته».

رسول محمد رسول، كاتب وناقد، حاصل على الدكتوراه في آداب الفلسفة الألمانية عام 1997م. يعمل أستاذًا جامعيًّا، ومستشارًا ثقافيًّا، ويكتب في صحف ومجلات فكرية وثقافية وأدبية عدَّة. له أكثر من عشرين كتابًا، منها: الجسد في الرواية الإماراتية، العلامة والتواصل، اللمس والنظر، الأنوثة الساردة، السَّرد المفتون بذاته، شعرية المؤدّى السَّردي، وغيرها من المؤلّفات الفلسفية والفكرية والنقدية.

الدار المصرية اللبنانية

للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com

9 789774 279324